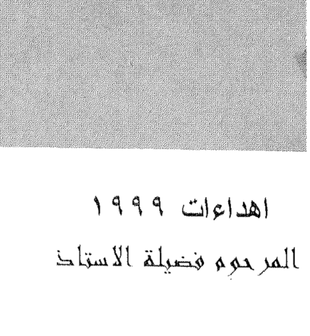
محمود
الغزاوى



مقتل

عثمان بن عفان

رضي الله عنه

وهو بحث فى الفتنة التى حدثت أيامه وانتهت

تأليف

محمود الغزاوى

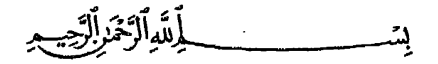
الحائز على درجة الليسانس فى الآداب والعلوم التاريخية

وعضو الماجستير فى التاريخ الأسلامى بكلية الآداب

الطبعة الثانية

سنة ١٩٣٦

مطبعة مجلى



تقديم الكتاب

بقلم العالم الجليل الدكتور حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة المصرية

تلقى الأستاذ محمود الغزاوى مادة التاريخ الاسلامى بكلية الآداب منذ سنة ١٩٢٩ على أثر التحاقه بها بعد إلغاء مدرسة المعلمين العليا ، ونال درجة الليسانس فى الآداب من الجامعة عام ١٩٣٢ ، وهو الآن يشتغل معى للحصول على درجة الماجستير فى الآداب ، وسيتقدم لامتحان هذه الدرجة — على ما أرجح — فى مايو المقبل إن شاء الله .

على أن عمل الأستاذ الغزاوى المتواصل لأنجاز رسالته التى سيتقدم بها لهذا الامتحان لم يقف به فى سبيل هذه الفكرة الموفقة وهى نشر كتابه عن « مقتل عثمان ابن عفان » وفيه يبحث الفتنة التى حدثت فى عهد عثمان وانتهت بقتله ، وهى ناحية من النواحى الغامضة فى التاريخ الأسلامى التى تستحق البحث والتمحيص .

بيد أن الكلام عن حياة الخليفة عثمان مبسوط فى كتب التاريخ الأسلامى ، كما لم يفت المستشرقين أن يتناولوه بالتفصيل فى مؤلفاتهم ، وانما الناحية الدقيقة التى ظلت غامضة بعض الغموض والتى لا تزال فى حاجة إلى عناية خاصة هى تلك الناحية التى تتعلق بقتل هـــذا الخليفة واستجلاء العوامل التى أدت إلى هذه الحادثة التى فرقت المسلمين شيعاً وأحزاباً ، ونعنى بهذا مقتل عثمان ابن عفان والبحث من هذه الناحية لا يخلو من طرافة .

وقد حاول الأستاذ الغزاوى جهده استجلاء ماغمض من الحقائق فى بحثه فبسطها بسطاً ممتعاً وانتهى من كل منها برأى شخصى يدل على مايمتاز به المؤلف من قوة الاستنباط ، ودقة النقد . وإصابة الحكم ، مما يستحق الثناء

والتقدير . هذا إلى ما يمتاز به الكتاب أيضاً من الاشارة إلى المصادر العربية والافرنجية كل فى محله شأن المؤرخين والكتاب من المستشرقين فى بحوثهم العلمية الحديثة . كل ذلك يتبين للقارىء فيما تناوله المؤلف من موضوعات بحثه ، فقد تكلم فى الباب الأول عن حال المسلمين قبيل الفتنة واستعرض مشكلة من أدق المشاكل الدستورية التى كانت تحوط انتخاب الخليفة من الوجهة التاريخية العملية لا عن طريق فقهى نظرى ، ثم تكلم عن عوامل الفتنة مستعرضاً النزاع الذى نشب بين بنى هاشم وبنى أمية وما كان لهذا النزاع من أثر فى مجرى الحوادث . كذلك تحدث عن سياسة عثمان بن عفان باعتبارها عاملا من العوامل الهامة فى إثارة سخط المسلمين عليه .

وقد بحث المؤلف فى الباب الثانى من الكتاب كيفية انتشار الفتنة فى تلك الأمصار واحدة بعد أخرى، وما كان للدعاة من أثر فى إذكاء نيرانها ، ويعتبر هـذا الباب بحق من أمتع البحوث على الرغم من إيجازه .

وقد اختتم الأستاذ الغزاوى كتابه بفصل رائع عن تطورات الفتنة فتكلم عن حصار الخليفة وقتله وهو يتلو

القرآن الكريم ,وصور هذه المأساة فى إيضاح وبراعة حتى ليخيل للقارىء أن الأشخاص تتراءى أمامه يحس بأحساسها ويشعر بشعورها.

والكتاب فى مجموعه يدعو إلى الارتباح والتقدير . وكل ما أرجوه أن يكون هذا البحث نواة صالحة يستطيع معها الأستاذ محمود الغزاوى أن يضع فى التاريخ الأسلامى مؤلفات علمية تكشف عن كثير من المسائل الغامضة فى هذه الناحية من نواحى التاريخ . ولا غرو فان رسالة الجامعة ليست مقصورة على تخريج شبان يقطعون صلتهم بالعلم بعد تخرجهم ، وإنما هى تزويد الطلاب فيها بخير الوسائل العلمية الصحيحة التى تبث فى نفوسهم لا حب العلم والاستزادة منه فحسب ، بل إظهار شخصيتهم فى عالم التأليف بوضع المؤلفات المبتكرة . وأنا أعتقد أن المؤلف قد شعر بقسط وافر من هذه الرسالة الجامعية حين عزم على نشر هذا الكتاب الذى أرجو له ما هو جدير به من الذيوع والانتشار ؟

حسن ابراهيم حسن

كلمة المؤلف

في الطبعة الثانيه

نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب الصغير فى أقل من شهر واحد من تاريخ صدوره فى العام الماضى. وكأنى بهذا الجمهور الكريم قد كان على موعد مع ذلك البحث العلمى الذى كنت أحسب أنه لا يدخل اللذة إلا على من قام به وتوافر عليه فاذا به يجد سبيله أيضا إلى قلوب المؤمنين...!

ولعل ذلك يرجع فى الحقيقة إلى أن مقتل عثمان بن عفان، رضى الله عنه، كان أول ثورة فى الاسلام، وأول حادثة حدد بها جمهور الثائرين العلاقة بين الحاكم والمحكومين. وهى فوق هذا وذاك فاجعة ما زال تأثيرها شديداً على

الرجل الكبير والسيدة العجوز بقدر ما يتأثر بها الشاب المكتمل والطفل الصغير .

وأنا أعترف أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب لم تكن على جانب كبير من أناقة الطبع ودقة الصنع ، أما اليوم فقد أسلمت الأمر كله لصديقى المفضال الأستاذ الصاوى ، وأنا واثق أن إخراج الطبعة الثانية سوف ينال رضاء الجمهور الكريم . وحسبى أن أعترف أن الشعور بالنقص كاف فى بلوغ مراتب الكمال .

ولعل خير ما كنت أغتبط من أجله هذا النقد الذى أثارته الصحافة العربية والمجلات العلمية ، فقديماً قالوا إن الحقيقة بنت البحث ، وأنا أشكر أصدقائى وغير أصدقائى ممن تكرموا على بتقاريظهم الجميلة ، وأذكر أيضا بالخير ما لقيته من عطف صاحب العزة الباحث الاسلامى الكبير الدكتور محمد حسين هيكل بك ، وغيره من كبار رجال الدولة الذين كان لتشجيعهم الأدبى وتقديرهم الجميل أكبر الأثر فى إخراج هذا البحث مرة أخرى ، وأخص بالذكر منهم سعادة الأستاذ الضليع حسن بك نبيه المصرى وكيل مجلس الشيوخ وسعادة محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف

وإذا كانت تلك الثمرة شهية إلى النفس، محببة إلى الفكر، فالفضل فى ذلك إنما يرجع إلى ما تعهدنى به أستاذاى الجليلان الدكتور حسن ابراهيم حسن وحضرة الأستاذ عبد الحميد العبادى من أساطين كلية الآداب بالجامعة المصرية فسأظل أذكر لهما أياديهما البيضاء على إذ تعهدانى حين كنت طالباً بكلية الآداب منذ نيف وست سنين .

***

وبعد، فأنه ليسرنى كل السرور أن أضع هذا الكتاب الصغير مرة أخرى بين يدى القارىء وأنا شديد الثقة فى حسن تقديره .

وأحمد الله أخيرا الذى مكننى من إعادة طبعه مع تنقيحه وزيادة العناية به وحسبى من ذلك كله أن أكون قد أخرجت للناس صفحة كانت غامضة من صفحات التاريخ الاسلامى. ؟

محمود الفزاوى
بوزارة التجارة والصناعه
بأدارة التشريع والتسجيل

الباب الأول

حالة المسلمين قبيل الفتنة

الفصل الأول

عثمان بن عفان

بيعـــة السقيفة

وفاة النبي

ليس من اليسير على الباحث فى التاريخ الاسلامى أن يدرس مثل ذلك اليوم الدقيق الذى أعقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الروايات وإن تكن متوافرة ، إلا أنها لاتكاد تجمع على شيء واحد ، اللهم إلا أننا نرى هذه الحوادث تسفر عن نظام جديد لم يكن العالم العربى قدألفه قبل وفاة النبى ، وهذاالنظام على مافيه من ديمقراطية ودقة قد أثر فى الأمة الاسلامية أثراً بعيد المدى .

انتقل النبى صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه فى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول سنة ١١ هـ (١) ، مات وقد اشتد الضحى كما يقولون . ولم يؤثر عنه قبل وفاته أنه نص على

---

(١) وبعضهم يصحح ذلك فيقول ١٢ من ربيع الأول من هذه السنة .

نظام يتبع فى الدولة الاسلامية بعد وفاته ، إما لأن المرض قد منعه عن ذلك ، وإما لأنه كان يرى أن هذا الأمر ليس من جوهر الدين فى شىء إذ لم ينص الدين على تعيين طريقة خاصة للحكم . من أجل هذا لم يشأ الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقطع فى الأمر بشىء مخافة أن يؤدى ذلك إلى الانقسام وقيام الفتن بين المسلمين أنفسهم ،لأن النبى كان على علم تام بما بين المهاجرين والانصار من خلاف إذ لو جعل الخلافة لأحدهما ثار الفريق الآخر . هذا إلى أن المهاجرين أنفسهم كانوا منقسمين إلى بنى هاشم أقرباء النبى الأدنين من جهة ، وسائر قريش من جهة أخرى . كما أن الانصار كانوا منقسمين فيما بينهم أيضاً الى أوس وخزرج ، وكلاهما شديد التنافس . ثم إن النبى رأى أن يترك هذا الأمر للمسلمين كى يفصلوا فيه كيفما شاءوا . ولا غرو فقد كانت نفس النبى صلى الله عليه وسلم مشربة بالروح الديمقراطية التى كانت تسود بين العرب منذ أيام الجاهلية .

حالة المسلمين

المهاجرون والأنصار

الأوس والخزرج

ولكى نفهم كيف تمخضت الحوادث عما يسميه المؤرخون « نظام الخلافة » يجدر بنا أن نرجع قليلا إلى

زمن النبي صلى الله عليه وسلم فقد عهد أيام حياته الى أبي بكر بالأمامة في الصلاة (١) ومن هنا يستند بعض الباحثين إلى أن ذلك معناه الترشيح للخلافة . كما يستند هؤلاء أيضاً إلى الحديث الشريف « سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر » (٢) وذلك ليبرروا ترشيح أبي بكر على يد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا فيما نرى استناد ضعيف ، إذ ما الذى يضطر النبي عليه السلام إلى التلميح دون التصريح ونحن في مقام خطير كهذا ؟ وفضلا عن هذا ، فهناك بعض الأحاديث التي تروى عن علي وعمر رضي الله عنهما ، ومنها نقف على أن كلا منهما كان يود لو رشح للخلافة . على أن هذا في الحقيقة إما محمول على غير ما قصد به ، وإما أن تلك الأحاديث موضوعة مختلقة من أساسها لأسباب لا نرى هنا مجالا لذكرها .

النبي لم يرشح احداً للخلافة

وهناك دليل ثالث على عدم ترشيح النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر للخلافة : ذلك هو الخلاف الذى نشب

---

(١) سيرة ابن هشام طبعة وستنفلد ج ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠٠٩

(٢) الأصل أنه كان لكل من الصحابة منزل يتصل بمسجد المدينة فأمر النبي أن تسد جميع المنافذ الى المسجد الا خوخة أبي بكر وذلك حفظاً للحرم .

بالفعل بعد وفاة النبي مما كاد يؤدى إلى الفتنة . فلو أن النبي رشح أحداً للخلافة لما حدث شيء من ذلك .

توفى النبي ولم تكن هناك إذن خطة تتبع ، فماذا حدث ؟ سلم الجميع بوجوب قيام حكومة أياً كان شكلها . فأما الأنصار فقد اجتمعوا على أثر سماعهم نعى الرسول عليه السلام فى مكان يدعى « سقيفة بنى ساعدة » كى يتشاوروا فى الأمر ، وهم مصممون على أن تكون الخلافة لرجل منهم هو سعد بن عبادة الخزرجى ، بمعنى أنهم سلموا ضمناً بوجوب قيام حكومة على رأسها رجل من الأنصار ممن لهم شأن عظيم فى إعلاء كلمة الدين . ماذا حدث ؟

على أن المهاجرين لم يمكنوا هؤلاء من بغيتهم . فقد اجتمعوا فى بيت النبي عليه السلام عقب وفاته ليتذاكروا فى هذا الأمر . وهنا بلغهم خبر اجتماع الأنصار فقرارهم على تلافى الأمر قبل تفاقمه . ومن ثم تركوا جثمان النبي الطاهر وأسرعوا إلى السقيفة، ومن بينهم ثلاثة من رجالات ذلك العصر : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة . فهل كان هناك من محرك لهؤلاء على أن يعملوا بوحى من خاطرهم ؟ أم أن خطة مرسومة كانت مبيتة من قبل ؟ لعلنا لا نخطىء إذا

قلنا إن هذا الأمر تناولته هذه الجماعة بالبحث من قبل ، فقد جاش بخاطر أولى الأمر هذا السؤال : ترى ماذا يكون الأمر لو توفى النبي ؟ هذه فيما نرى هى المسألة التى عرضت قبل وفاة النبي ، دون علمه بالطبع ، بل لعلهم كانوا على اتفاق أن تكون الخلافة لرجل من المهاجرين دون الأنصار ، فلما رأوا اجتماع الأنصار تركوا الجسد الشريف وخرجوا ليتصلوا بهم فى السقيفة .

أما الأنصار ، فلم يسد بينهم الوفاق . نعم ! فقد كانوا يتكونون من قبيلتى الأوس والخزرج : وكانتا متعاديتين فى الجاهلية ، لدرجة أن قامت بينهما حروب طاحنة كانت الغلبة فيها للأوس على الخزرج أخيراً ، حتى إذا جاء الاسلام قضى على الخلاف الذى ساد بين الفريقين ، وضم شمل الجمعين بحيث أصبح الجميع يداً واحدة . إلا أنه رغم ذلك كله فقد بقيت العداوة والبغضاء كامنة فى الصدور حتى انفجر بركانها ، وانبعث فى هذا اليوم من جديد : فذكرت الأوس ما كان بينها وبين الخزرج من الأحن والعداوة القديمة . ولما كان المرشح للخلافة من الخزرج فقد خشى الأوس عاقبة ذلك ، ومن ثم نراها تميل إلى

أن يقع الأمر إلى قريش حتى لا تستبد الخزرج بهـا ، وكذلك نرى الأوس تميل لتحويل الدفة نحو المهاجرين.

بيعة أبى بكر

على أن ذلك التحول تم بخطوة جريئة خطاها بطل ذلك اليوم . وهو : عمر بن الخطاب . فقد ذهب المؤرخون إلى أنه عند ما رأى أن نار الفتنـــة كاد يندلع لهيبها . قال لأبى بكر : أبسط يدك ، فانى أبايعك على أن تكون خليفة . فصفق عليها أبو بكر دليلا على الاتفاق (١) .

البيعة الخاصة

فلما فعل ذلك عمر ورأت الأوس أن الأمر قـد يذهب للخزرج كما بينا ، عمدت إلى مبايعة أبى بكر فبايعته ، وتركت الخزرج وحدها . وبذلك صارت الأغلبيـة لأبى بكر . وحينئذ لم يسع الخزرج إلا أن تبايع مرغمة (٢) .

وكذلك امتنع بعض ذوى الجاه . كالعباس عم النبى ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم من السابقين إلى الاسلام الذين اتحدوا مع على بن أبى طالب (٣) .

---

(1) Hell, Die Kultur Araber "Translated by Khuda Buksh p. 34.„

(٢) ولو أن رئيسها فيما يقال لم يبايعه حتى قضى نحبه .

(٣) سيرة ابن هشام (طبعة وستنفلد) ج ٢ ص ١٠١٣

وهكذا تم الأمر لأبى بكر . . . حدث كل ذلك بعد وفاة النبى بساعات قلائل . على أن البيعة لم تتم فى حقيقة الأمر إلا فى اليوم التالى للوفاة إذ جاءت العامة فبايعت أبا بكر بالخلافة ، فكان أول خليفة فى الاسلام . وتسمى البيعة الأولى . «البيعة الخاصة» . أما الثانية : فتسمى «البيعة العامة » وهى توكيد للبيعة الخاصة (١) .

البيعة العامة

بعد هذا نرى أبا بكر يعتلى المنبر فيلقى خطبة هى أقرب شىء إلى خطاب العرش مما يعرفه الناس فى النظم البرلمانية الحديثة (٢) ، وهو خطاب له قيمته الدستورية ، إذ يدل دلالة قاطعة على روح الديمقراطية التى انطوى عليها الحكم الاسلامى .

---

(١) سيرة بن هشام (طبعة وستنفلد) ج ٢ ص ١٠١٧

(٢) راجع هذه الخطبة فى الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣ (طبعة مصرية)

عمر بن الخطاب

مات أبو بكر الصديق بعد مرض لازمه بضعة أيام، كان أثناءها شديد التفكير فى أمر المسلمين بعده، فقد أدرك بنفسه ما دار فى السقيفة. ومن هنا رغب فى أن يتدارك الأمر قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، حتى لا يقع المسلمون فيما كادوا يقعون فيه أيام استخلافه هو من اضطراب فى الصفوف، واختلاف فى الآراء والنزعات.

تعيين عمر

ولم يجد خيراً من عمر بن الخطاب شخصاً يثق به جمهور المسلمين لتولية الحكم من بعده. ولم يكن أبو بكر فى ذلك مستبد النزعة، فقد دعا كثيراً من الصحابة فى المدينة لاستطلاع رأيهم فى هذا الأمر. أما غيرهم من كبار الصحابة، فقد كانوا يحاربون فى ميادين القتال خارج الجزيرة العربية.

ولقد كان عمر بن الخطاب خليقاً بهذه الخلافة كما كان على بن أبى طالب من الصحابة الكرام الذين يتطلعون إليها فى نظر البعض. إلا أن الأول «ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور إليه والثانى يرى الاستقامة

فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو إلى الشدة أميل منه إلى اللين (١) » .

وليس يعنينا الآن أن نتحدث عن وجوه الاصلاح التى قام بها عمر بن الخطاب ، إنما كل ما يعنينا أن نعرض لشخصيته وما كان لها من أثر فى إدارة الدولة الأسلامية من الوجهة العمرانية العامة .

نشأته

نشأ عمر أيام الجاهلية فى مكة ، تلك البيئة الصالحة لأخراج الشخصيات الفذة ، لما لها من مركز ممتاز ، فقد كانت تتصل بالبلاد الأخرى عن طريق التجارة ، ودرج عمر فى هذه البيئة ، فعرف بلاد الروم ومصر ، كما عرف الحبشة والشام . وهو من قبيلة عدى إحدى القبائل المستضعفة من قريش . أبوه من عدى ، وأمه تنتمى إلى قبيلة قوية فى الجاهلية من بنى مخزوم . فاذا كانت الأولى ضعيفة ، فقد كانت الأخرى قوية . وكانت لعمر السفارة فى الجاهلية ، كما ورد فى العقد الفريد لابن عبد ربه (١) . وهى مركز يسند إلى شخص يحتكم إليه أهل القبائل إذا ما اشتد الجدل أو دب النزاع بينهم .

(١) أشهر مشاهير الأسلام لرفيق بك العظم ـ المجموعة الأولى ص ١٣٣

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٨

شخصيته

ولا شك فى أن شخصية عمر بن الخطاب من الشخصيات البارزة فى التاريخ ، فلئن كان التاريخ الحديث يفخر بنابليون بونابرت ، والتاريخ القديم بالاسكندر الأكبر ، فان تاريخ الشرق الوسيط لخليق به أن يفخر هو أيضاً بعمر بن الخطاب ، فهو يمتاز بميزات جليلة من نواح شتى : سواء فى الحروب والادارة ، أو التشريع والسياسة . فهو الذى وطد أركان الدولة العربية ، وساس قبائلها ، وأحسن سياستها ، كما كان ورعاً ، متقشفاً ، يقوم بواجبه لا يخشى فى الله لومة لائم . ولم يكن فى ذلك يحابى كبيراً ، أو يأكل مال الضعيف . وكان متحمساً للحق لدرجة الصلابة فيه ، رغم ما اشتهر عنه من العطف على الضعفاء . كما أنه كان قاضياً شديد النزاهة ، وبخاصة نحو نفسه . ولا غرو ، فقد ولد حاكما بطبيعته ، كامل الرجولة فى كل خطوة من خطوات حياته (١) .

---

(1) Nicholson, A Literary History of the Arabs, p 180.

قصـــة الشورى

(ا) من هو عثمان ؟

هو عثمان بن عفان بن أبى العـاص بن عبد شمس ابن أمية بن عبد مناف بن قصى الأموى القرشى : وأمه أروى بنت كـريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصى .

مولده

ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشب على الخلق الكريم ، والسيرة الحميدة ، كما كان حيياً عفيفاً ، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عثمان من السابقين الأولين ، أسلم على يد أبى بكر ، وزوّجه النبى عليه الصلاة والسلام ابنته رقيه . فلما آذى مشركو قريش المسلمين ، هاجر بها من مكة إلى الحبشة ، ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة . فلما أذن الله بالهجرة ، هاجر إليها هو وزوجته ، وحضر مع رسول الله كل مشاهده ، ولـكنه لم يحضر بدراً إذ أخلفه عليه الصلاة والسلام لتمريض زوجته رقية التى توفيت عقب غزوة

بدر . ولكن الرسول أسهم له فى غنائم بدر ، ثم زوّجه بنته الثانية أم كلثوم . وكان فى « الحديبية » سفيراً بين رسول الله وبين قريش . فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى : هذه هى يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى .

فضل عثمان

وكان لعثمان اليد الطولى فى جيش العسرة إلى تبوك (١) . فقد أنفق من ماله الخاص الشىء الكثير كما اشترى بئر رومة منه أيضاً ، ثم تصدق بها على المسلمين ، فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم . وقد أثر عن النبى أنه قال : « من حفر بئر رومة فله الجنة » ، وكان رضى الله عنه كاتب الوحى بين يدى الرسول .

ولما توفى النبى عليه السلام كان عثمان لأبى بكر ثم لعمر مشيراً أميناً ، كثيراً ما استشير فى مهام الأمور .

(١) سيرة ابن هشام طبعة وستنفلد ج ٢ ص ٨٩٥

ب — بيعة عثمان :

ولئن كانت خلافة أبى بكر قد جرت عن طريق الانتخاب كما بيّنا فأن استخلاف عثمان بن عفان رضى الله عنه قد جرى عن طريق جمع بين الطريقين الأولين : الترك والتعيين . ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ترك الأمر للمسلمين ، فانتخب أبو بكر خليفة لهم . وأما أبو بكر فقد كتب كتاباً للأمة يوصيها فيه باستخلاف عمر بن الخطاب (١) .

وحدث أن طعن عمر رضى عنه الله ، تلك الطعنة التى أودت بحياته . ولا شك أنه قد عانى كثيراً من الآلام الفكرية إلى جانب آلامه الجسمية ، ولكنه مع ذلك لم يرد أن يترك جماعة المسلمين تتخبط فى ظلام دامس . ولقد استولت على عمر الحيرة : فهل يسير على طريقة الرسول فيترك الأمر للمسلمين دون تعيين أو ترشيح ، أو يتبع طريقة أبى بكر من حيث التعيين ؟

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٦

على أنه خشى الأمرين جميعاً : إذ رأى بنفسه ما أدى اليه التنافس الشديد على الخلافة بعد موت الرسول ولما يدفن بعد . . ! كذلك كان يخشى أن يعين شخصاً بالذات . لأن افتقاد مثل ذلك الشخص أمر عسير إذ لم يجد بين المسلمين من يدانيه قوة وبأساً .

ديمقراطية أصيلة

لهذا نراه يسلك سبيلا ثالثاً يجمع بين الرأيين حتى لا يترك جماعة المسلمين دون الفصل فى هذا الموضوع . نراه يرشح ستة من رجالات عصره توفى النبى وهو عنهم راض ، وهم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد ابن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم أجمعين .

وفى هذا الترشيح نفسه دليل على نزول عمر على مبادىء الديمقراطية الصحيحة لأنه لم يدخل ابنه عبدالله — مع بلائه وعظيم شخصيته — فى سلك المرشحين للخلافة وقد سئل عن سبب ذلك فقال : حسب بنى الخطاب أن يتولى الخلافة واحد منهم أى شخصه هو ، وذلك يثبت أن فكرة التوريث فى نظام العرب الاسلاميين فكرة معدومة ، لا وجود لها أصلا . فنظام الشورى هو فى الأصل نظام

يتفق والتقاليد العربية التى لم تكن تؤمن إلا بالانتخاب. ثم إن الشورى نظام يتمشى مع التعاليم الأسلامية لأنها ترى نظام الوراثة هو بنفسه نظام الحكم فى بلادالفرس، ذلك النظام الذى كان العرب يحملون عليه فى كثير من المقت والكراهة.

الشورى اجتمع هؤلاء الستة بأمر عمر بن الخطاب للتشاور، ثم ارتفعت أصواتهم. فقال عبد الله بن عمر: « سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يمت بعد. » وأسمعه ذلك فانتبه وقال: ألا أعرضوا عن ذلك أجمعين، فأن مت فتشاوروا فى الأمر ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب (١) ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر ابنى عبد الله بن عمر مشيراً، ولا شيء له فى الأمر. وطلحة فهو شريككم فيه، فأن قدم فأحضروه أمركم. وما أظن أن يلى إلا هذين الرجلين: على، أو عثمان. فان ولى عثمان، فرجل فيه لين. وإن ولى على، فرجل فيه دعابة. وأحر

(١) كان صهيب رقيقاً من أصل رومانى افتداه النبى من ماله وصار الى جانبه بمثابة ناموس خاص له وقد نصب على رأس الجماعة الاسلامية حتى يتم استخلاف الخليفة.

أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعداً، فأهلها هو ، وإلا فليستعن به الوالى، فأنى لم أعزله عن خيانة، ولا ضعف، ونعم ذو الرأى عبدالله بن عوف، مسدد رشيد، له من الله حافظ، فاسمعوا منه.

وقال لأبى طلحة : يا أبا طلحة : إن الله طالما أعز الأسلام بك، فاختر خمسين رجلا من الأنصار. فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم (١).

تحليل خطة عمر

هذه هى خلاصة الخطة التى رسمها عمر بن الخطاب فى صدد استخلاف واحد من هؤلاء الستة، وهى خطة أملاها عليه الموقف الذى كان فيه. وإن نظرة دقيقة إليها لكفيلة بأن تبين إلى أى حد كان عمر بن الخطاب فذاً فى تفكيره، حصيفاً فى رأيه. فهو فضلا عن أنه جمع هؤلاء، ونصح كلا منهم على حدة، فأنه لم يجعل البت فى الأمر قيد ساعة أو يوم، بل جعل ذلك يتم فى ثلاثة أيام، ثم إن اختياره صهيباً لرياسة الحكم فى هذه الأيام الثلاثة، مظهر من مظاهر الديمقراطية العربية فى ذلك الوقت.

هذا إلى أن عمر بن الخطاب قد أكمل الخطة، فأمر أنه

---

(١) الطبرى (طبعة مصر) ج ٥ ص ٣٣

إذا أجمع خمسة منهم أو أربعة على انتخاب شخص، خالفهم فيه رجل أو اثنان، قتل المعارضون . . . ! وإذا كان هوى ثلاثة منهم فى شخص، يعارضهم فيه ثلاثة آخرون. احتكموا إلى عبد الله بن عمر، حيث جعل عمر رأيه مرجحاً. وكان الغرض من كل ذلك، قطع الطريق على كل من قد تحدثه نفسه بالقيام بفتنة، أو انقلاب حزبى كائناً ما كان ذلك الحزب.

المنافسة

ولما دفن عمر، جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة (١) وهم خمسة معهم عبد الله بن عمر، وكان طلحة غائباً. وعلى الرغم من أن عمر قد حصر الانتخاب، فى ستة رجال ورسم لهم الطريق التى تتبع فى الانتخاب، فأن الأمر لم يمر بسهولة: لأن كلا من هؤلاء كان شديد الحرص على أن يلى الخلافة بنفسه إن لم يلها أحد من أقربائه وذوى عصبيته.

على أن بعضهم — كعلى مثلا — كان يعتقد أنه أحق بالخلافة من غيره لأنه ابن عم النبى وصهره، ولأنه أبلى البلاء الحسن فى نصرة الأسلام، يضاف إلى ذلك أنه يمثل الهاشميين أقرباء النبى الأدنين.

(١) ويقال فى بيت المال، ويقال فى حجرة عائشة بأذنها.

أما عثمان : فقد كان له مقام أدبى كبير . فهو أكبر المرشحين سناً ، ثم إنه ضحى بأكثر ثروته فى رفعة الأسلام ونصرته ، فهو يرى أنه لذلك كله جدير بأن يلى الخلافة وكان يمثل الأمويين .

أما طلحة : فكان غائباً كما قدمنا . وأما سعد والزبير : فكان ميلهما نحو عثمان . وأما عبد الرحمن بن عوف ، فعلى الرغم من أنه كان من أقرباء عثمان إلا أنه كان رجلا نزيهاً غير أنانى فى هذا الموقف . ويعتبر ابن عوف رضى الله عنه المحور الذى تدور عليه رحى الحوادث فى قصة الشورى. فقد استطاع بحكمته وحسن سياسته ، أن يحل العقدة فى هذه المشكلة . ذلك أنه عندما رأى أن التنافس قد اشتد ، وأن الأيام الثلاثة التى عيّنها عمر أوشكت على الانتهاء دون أن يصلوا إلى بغيتهم ، نراه يقترح عليهم اقتراحاً يتلخص فى أن يتنحى واحد منهم عن حقه فى الترشيح للخلافة ، على أن تكون له الكلمة الفاصلة ، فلم يجبه أحد . فقال : أنا أنخلع منها . فقال عثمان : أنا أول من رضى ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول : أمين فى الأرض ، أمين فى السماء . فقال القوم : قد رضينا .

جهود عبد الرحمن بن عوف

وأما علي : فقد كان ساكتاً لا يتكلم . فقال ابن عوف : ما تقوله يا أبا الحسن ؟ فقال : « أعطني موثقاً من الله لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة . » ثم أخذ عبد الرحمن من الصحابة المواثيق ، فأجابوه إليها وأعطاهم مثلها .

أخذ عبد الرحمن يختلي بعد ذلك بكل من المرشحين الموجودين، فيقول لعلي : « إنك تقول : إنك أحق من حضر بالأمر لقرابتك ، وسابقتك ، وحسن أثرك في الدين ولم تبعد ؟ ولكن أرأيت لو صرف الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ » قال :

— عثمان بن عفان .

وخلا بعثمان فقال له : « تقول شيخ من بني عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، ولي سابقة وفضل ، فلن يصرف هذا الأمر عني . لكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط تراه أحق ؟ » فقال :

— علي بن أبي طالب.

وفعل ذلك مع سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام . وقد قالا : عثمان .

ويقال إن عبدالرحمن بن عوف لم ينم مدة الشورى ، بل ظل يواصل الجهود ليلا ونهاراً طيلة هذه الأيام الثلاثة . وفى صبيحة اليوم الرابع اجتمع الناس فى المسجد ، فلما صلوا الصبح ، جمع الرهط ، وبعث إلى من حضر من المهاجرين ، وأهل السابقة والفضل من الأنصار ، وإلى أمراء الأجناد ، فقال :

ــ أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا مَن أميرهم . فقال سعيد ابن زيد : إنا نراك لها أهلا .

وقال عبد الرحمن : أشيروا علىّ بغير هذا .

فقال عمار بن ياسر :

ــ إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا .

وقال عبد الله بن سعد بن سرح :

ــ إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان .

فقال عبد الله بن أبى ربيعه : إن بايعت عثمان ، قلنا سمعنا وأطعنا. فشتم عمار بن أبى سرح ، وتلاحى بنو هاشم وبنو أمية . فقال سعد بن أبى وقاص لعبدالرحمن : أسرع قبل أن يفتتن المسلمون . فدعا عبد الرحمن علياً وقال :

ـــعليك عهد الله وميثاقه ، لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخليفتين من بعده .

فقال علي :

أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي .

غضب علي ودعا عثمان فقال له مثلما قال لعلي ، فأجابه الى طلبه ، فبايعه عبد الرحمن . ثم قال علي له :

« حبوته حبو دهر . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر اليك . والله كل يوم هو فى شأن . » ثم بايع علي عثمان وخرج وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله (١) .

وكان ذلك فى يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م) .

وربما أحفظت إجابة علي عبد الرحمن بن عوف لما فيها من نزوع إلى التجديد وحرية الفكر مما كان يتنافى مع الروح السائدة فى بدء النظم الاسلامية ، من ضرورة التمسك بآثار السابقين .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٣ — ٣٧ .

ج ـ أثر بيعة عثمان :

أما أن خطة عمر قد نفذت بحذافيرها فهذا ما لم يكن: فلقد رأينا أن ابنه عبد الله بن عمر لم يستشر مطلقا، ثم إن عمر جعل الأمر لأهل الشورى دون أن يدخل عامة المسلمين فى الانتخاب. وهو بذلك قد حرم عدداً لا يستهان به من جماعة المسلمين من حق التصويت لانتخاب رئيس الدولة العربية . إلا أن عبد الرحمن بن عوف قد تدارك الأمر فأشرك العامة فى استشارتهم ، وهذا هو الذى أمال كفة عثمان بن عفان نظراً لنشاط الأمويين .

ومهما يكن من شىء ، فقد تمت بيعة عثمان عن طريق التصويت والانتخاب ، وإن كان تصويتا غير منتظم . وهذا الانتخاب وذلك التصويت يبينان بوضوح وجلاء كيف أن الخلافة كانت إلى ذلك العهد متمشية مع ما تقتضيه الروح الدينية . إذ ليس هناك وراثة ولا تعيين فى الاسلام . وإنما الأمر متروك للمسلمين ولتصرفهم فى مثل تلك الشئون .

ولقد ذهب بعض المستشرقين مذهبا آخر فى صدد قصة الشورى . فمنهم من يرى أن ما ذكره المؤرخون

رأى المستشرقين حول هذه القصة أمر مبالغ فيه ، إن لم يكن مختلقاً من أساسه. نعم ! هم يرون أنه لم تكن هناك وصية عمرية ، وأنه لم يكن اختار هؤلاء الرجال الستة ، بل إن عمر توفى دون أن يوصى بشيء من ذلك ، وأن هؤلاء الستة إنما اجتمعوا من تلقاء أنفسهم لانتخاب الخليفة الذى تم اعتلاؤه كرسى الخلافة على نحو ما بينا .

الرد عليهم هذا هو مجمل رأيهم . فهل من دليل ؟ أما دليلهم الذى يسوقونه ، فهو أن رجلا كعمر طعن هذه الطعنة التى أودت بحياته ليتعذر عليه إجهاد فكره فى مسألة دقيقة كمسألة الانتخاب . تلك المسألة التى تحتاج إلى الأعصاب فى حالتها الطبيعية . وهو دليل عقلى محض لا يستند إلى وثائق تاريخية، إنما يرجح هؤلاء المستشرقون ما يرون أنه غير معقول ، أو معقول من غير استناد إلى الوقائع التاريخية .

ونحن نرد على ما ذهب إليه هؤلاء المستشرقون بأنه لا يبعد مطلقاً أن يكون عمر قد فكر وأجهد فكره على الرغم من طعنته ، لأنا نعرفه ، رضى الله عنه ، قوى البنية ، طويل القامة كثير الاحتمال . بل لماذا نستبعد أن يكون عمر قد صحا صحوة الموت مما يقع لبعض الأفراد الذين

يوشكون على الارتحال إلى الدار الباقية . . ؟ ولعل عمر في هذه الصحوة استطاع أن يوحي بثاقب فكره بتلك الخطة التي رسمها . بل لماذا نستبعد مقدرة عمر على الاحتمال في محنة مرضه ، ونحن نرى عبد الرحمن بن عوف لا ينام ليلة واحدة وقت الشورى ، وهذه الحادثة قد أجمع عليها المؤرخون ؟

هذا إلى أننا أمام النصوص التاريخية الصحيحة لا نجد محلا للأخذ برأي هؤلاء المستشرقين : فنحن نستند إلى دليل تاريخي ملموس لا شك في صحته ، بينما لا يخرج رأيهم عن الشك والتخمين .

ومنذ اليوم الذي انتخب فيه عثمان بن عفان خليفة للمسلمين ، تجدد النزاع الذي قام بين الأمويين وبني هاشم ، وأتيحت الفرصة لأحياء الأحقاد والأحن بين بني هاشم وبني عبدمناف ، وإذكائها بعد أن كادت تقضي عليها التعاليم الاسلامية ، حتى كادت الحرب تعود بينهم سيرتها الأولى .

الفصل الثانى

عوامل الفتنة

١ — النزاع بين بنى هاشم وبنى أمية

كان هذان البيتان يتنازعان الرياسة منذ العصر الجاهلى ، ويظهر أن السبب فى هذه الفوارق الأدبية يرجع إلى أن الأمويين كانوا أهل عمل كما يؤخذ من تاريخهم القديم ، فهم يحبون التجارة وكسب المال حباً جماً . وكانوا شديدى الحرص على المكانة الاجتماعية القائمة على الجد والعمل الشخصى .

أما الهاشميون : فكانوا رجالا يعولون على شرفهم الرفيع ، وقلما يُعنون بالنزول إلى ميدان العمل والمنافسة الفعلية . فهم طبقة ارستقراطية تعيش على مجدها التليد ، وتطلب إلى الناس احترامهم وإجلالهم ورعاية حقهم .

ويروى لنا الطبرى قصة طريفة تتلخص فى أن هاشما وعبد شمس وُلدا توأمين وأن أصبع أحدهما كانت ملصقة بكتف الآخر، ولما ولد أحدهما قبل الآخر اضطروا إلى فصل الأصبع، فسال منه الدم، فتفاءل الناس من ذلك شراً وتوقعوا أن حروباً سوف يستعر نارها، ويتأجج لهيبها بين بنى هاشم وبنى عبد شمس (١).

سبب العداوة بينهما فى الجاهلية

ولتلك الرواية الشائعة قيمتها، لأنها أول ما يؤثر عن بدء العداوة بين هذين البيتين. ونجد أن هاشم بن عبد مناف ورث ما كان لأبيه من السقاية والرفادة. وكان رجلا جوادا معطاءً. وقد سمى بهذا الاسم لأنه كان يطعم الناس فى الحرب ويهشم لهم الثريد ويطعمهم، فساد بذلك وحسده أمية بن عبد شمس على رياسته وإطعامه. وكان هاشم فقيرا، ولكنه كان محبوبا ظفر بأمانة لم يظفر بها ابن أخيه أمية. وقد تكلف أمية أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش، فغضب ودعا عمه إلى المنافرة. فكره ذلك هاشم لسنه وقدره. وقبل هاشم المنافرة أخيرا على شرط أن يؤدى المغلوب للغالب خمسين ناقة سوداء،

---

(١) الطبرى طبعة مصر ج ٢ ص ١٨٠

وأن يرحل عن مكة عشر سنوات . فقبل ذلك أمية ، وحكما بينهما كاهناً من قبيلة خزاعة ، فغلبه هاشم وأخذ النوق وذبحها وأطعمها للناس . وخرج أمية من مكة ومكث عشر سنوات (١) .

وظلت الرفادة والسقاية فى بنى هاشم حتى توفى . ثم انتقلت إلى أخيه المطلب لصغر ابنه عبد المطلب بن هاشم . ولم تلبث تلك العداوة أن تجددت فى الجاهلية ، إذ قامت الحرب بين عبد المطلب بن هاشم ، وحرب بن أمية انتصر فيها عبد المطلب على حرب بن أمية (٢) .

فى الاسلام — ولما جاء الأسلام ، ارتفع شأن بنى هاشم لأن النبوة كانت فيهم ، تلك النبوة التى كانت مرجحاً عظيما لهم . ومن هنا كانت الجاهلية لبنى أمية والأسلام لبنى هاشم . وزاد الطين بلة — كما يقولون — أن الأمويين ناهضوا النبى والأسلام ، فعداوة كبيرهم أبى سفيان بن حرب بن أمية لرسول الله ، ومحاربته إياه أمر معروف فى التاريخ ، ولم يكن خلاصه إلا بشفاعة العباس بن عبد المطلب ، وقد طلب له حينئذ ما طلب حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٨٠
(٢) شرحه ج ٢ ص ١٨١

دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فكانت المكافأة عن تلك
اليد البيضاء التي قامت بهذه الشفاعة محاربة علي، وتسميم ابنه الحسن، وقتل الحسين ومن معه من أولاد علي وقرابات النبي صلى الله عليه وسلم وحمل نسائهم وذراريهم حواسر على الأقتاب (١) والكشف عن سوأة علي بن الحسين لما أشكل عليهم بلوغه. وقتل بسر بن أرطاة وزير معاوية ابني عبدالله بن العباس، طفلين صغيرين حتى تدلهت أمهما وحز ذلك في نفسها حزاً أليماً... !!!

أعداء الاسلام

وإذا نحن أردنا أن نعد غير أبي سفيان لذكرنا كثيراً منهم، قاموا بالعداء والتشنيع على النبي وعلى الاسلام والمسلمين. فمنهم: سعيد بن العاص بن أمية، وكان من أشد الناس عداوة وبغضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات مشركا. ومنهم الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله ولعينه، كان يؤذي النبي ويتطلع لأخباره بالمدينة، ويخبر بها الكفار. ومشى مرة خلف النبي وهو يتخلج (٢)

(١) سعيد بن العاص

(٢) الحكم بن أبي العاص

---

(١) الأقتاب: القتب للبعير جمعه أقتاب مثل: سبب وأسباب والأقتاب هي الأمعاء واحدها قتب مثل أحمال وحمل. وقد يؤنث الواحد بالهاء فيقال: قتبة وتصغيرها قتيبة وبها سمي الرجل.

(٢) اختلج العضو اضطرب والمراد مفهوم.

بأنفه ويتمايل ، كأنه يحاكى النبي . فلما التفت إليـه النبي ورآه قال له : « كن كذلك » فظل طول حياته كذلك ، عقوبة من الله تعالى . ومنهم : عقبة بن أبى معيط اشتهر بايذائه لرسول الله : وجد النبي ساجداً لربه . فوطأ عنقه الشريف وطأة شديدة ، ووجده كذلك مرة أخرى فوضع عليه سلى جزور (١) كان ملقى فى قمامة الطريق . فأمر النبي علياً فقتله . وقال للنبي متعطفاً : (٣)

— يامحمد . . من للصبية ؟ قال : النار . . . .!

(٤ و٥ و٦) ومنهم : عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وشيبة بن ربيعة، وكلهم كانوا أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأعداء للمسلمين والاسلام ، وقد قتلوا جميعاً ببدر كفاراً .

(٧) ومنهم كذلك : هند بنت عتبة التى ساومت وحشياً (٢) على قتل النبي أو قتل على كرم الله وجهه ، أو حمزة رضى الله عنه ، ثأراً لأبيها عتبة ؛ فلما قتل حمزة لاكت كبده ، واتخذت لها حلياً من أعضائه . . ! وأعطت وحشياً كل

---

(١) السلى الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه .
(٢) وهو قاتل حمزة يوم أحد : سيرة ابن هشام طبعة وستنفلد ج ٢ ص ٥٦٤

ماتحمل من حلى ولباس، نظير قتل حمزة (١) وقد استثناها من الأمان العام يوم الفتح وأمر بقتلها فيمن أمر بقتله فأسلمت ، وهى أم معاوية .

ومن الذين آذوا النبي أيضاً معاوية بن المغيرة ، وكان النبي قد طرده من المدينة وأجله ثلاثاً حتى حيره الله ، ولم يزل يتردد فى ضلاله ، حتى بعث النبي علياً وعماراً فى أثره فقتلاه ومات كافراً . (٨)

ومنهم : حمالة الحطب عمة معاوية (٢) وكانت تسب النبي وتؤذيه ، وتضع الشوك فى طريقه ، وهلكت كافرة .

محاولتهم قتل النبي

كل هؤلاء وكثير غيرهم من أقربائهم بذلوا جهدهم وجدهم فى عداوة النبي وعداوة الله ، وفى إيذاء الرسول والمسلمين حتى ألجأوهم (٣) إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة فراراً من اضطهادهم وظلمهم . وقد هموا بقتل النبي عليه السلام غير مرة ، فحفظه الله منهم . ولما هاجر إلى المدينة جعلوا لمن يقتله مائة بعير .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٣

(٢) المراد هنا بحمالة الحطب أنها نمامة توقد الشرور بين الناس .

(٣) بلغ عدد الذين هاجروا الى الحبشة ١٠١ مهاجر منهم ٨٣ رجلا واحدى عشرة امرأة قرشية وسبع نسوة غير قرشيات ، وجميعهم من المسلمين الذين خشى النبي أن ينالهم أذى قريش .

ولما توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، عاد الهاشميون والأمويون إلى ما كانوا عليه من التنافس على الخلافة سيرتهم الاولى. وقد علق «سيد أمير على» على قصة الشورى وأثر الامويين فى النزاع بينهم وبين هاشم فقال: «إن حرص عمر بن الخطاب على مصلحة المسلمين قد دفعه إلى اختيار هؤلاء الستة من خيرة أهل المدينة، ومن أهل السابقة فى الاسـلام، دون أن يتبع فى ذلك سنة سلفه أبى بكر. ومن ثم مهد السبيل لمكائد الأمويين ودسائسهم، وكان الأمويون يكونون حزباً قوياً فى المدينة كما كانوا طيلة حياتهم ينافسون الهاشميين من أهل البيت، ويبغضونهم بغضاً شديداً، ولا غرو فقد ناصبوا الرسول العداء، وكادوا له المكائد، ولم يدخلوا الأسلام إلا مكرهين مدفوعين إلى ذلك بدافع الحرص على مصالحهم، والمحافظة على حياتهم، ومن ثم اتخذوا الأسلام وسيلة لسد مطامعهم الأشعبية، وفرصة مواتية إلى رفعة شأنهم، وتشييد صروح مجدهم على أكتاف المسلمين» (١)

رأى سيد أمير على

(1) Sayed Amir Ali, A Short Hisrory of the Saracens, P. 55.

رأينا فيما قاله سيد أمير على

ومن الأنصاف للتاريخ أن نذكر أن فيما ذهب إليه المؤرخ « سيد أمير على » من اتهامه للأمويين ، وحملته عليهم ، تشهيراً صريحاً بهم ، ومبالغة كبيرة فى اتهامهم ، فليس بنو أمية وحدهم هم كل العرب الذين ناهضوا الأسلام فى نشأته ، وإنما اشترك فى ذلك سائر قبائل قريش ، ومنها بنو فهر ، وبنو عدى ، وبنو مخزوم ، وغيرهم من بطون قريش وأفخاذها . ومن الذين ناهضوا المسلمين أيضاً : بنو هاشم أنفسهم ، فقد كان منهم أبو لهب وابنه وزوجته (وإن قيل أنها من البيت الأموى) .

وقد كان من الطبيعى أن يكثر عدد الأمويين وغيرهم من الذين ناهضوا الاسلام ، ودعوة النبى لتخوفهم جميعاً على السواء من أن يستأثر الهاشميون بالنفوذ فى هذا العهد الجديد .

على أنهم لم يجدوا بعد وفاة عمر صعوبة تذكر فى فى الاهتداء إلى من يخلفونهم من قبائل البدو وغيرهم ممن كانت تربطهم بهم روابط الدم والقرابة ، ومن ثم نجحوا بدسائسهم — على ما ذهب إليه سيد أمير على — فى إقصاء علىّ عن الخلافة . وقد نجح هؤلاء فيما دبروه وانتهى

الأمر إلى عثمان بن عفان أحد أفراد البيت الأموى ، بعد مناظرات ومجادلات دامت أياماً ، انتصر بعدها بنو أمية على بنى هاشم .

والخلاصة أن كلامن بنى هاشم وبنى أمية كانوا شديدى التنافس على الشرف والرئاسة . وقد ظهر ذلك التنافس بين الفرقين فى الجاهلية والاسلام ، وزاد ظهوراً فى حادثة الشورى .

وقد اشتد النزاع ، منذ استخلاف الأمويين عثمان ابن عفان ، بين حزبين قويين هما : حزب الأمويين أنصار عثمان ، وحزب بنى هاشم أنصار على بن أبى طالب .

٢ — سياســـة عثمان

للدولة العربية منذ نشأتها سياستان : سياســـة اقتصادية ، وسياسة إدارية . أما الاولى : فخاصة بالمـال وما فرضته الشريعة من قوانين خاصة به ، سواء فى الحرب ، أو السلم . وأما الثانية : فتتعلق بالفتوحات والولايات والولاة . ولقد كانت سفينة الدولة العربية تسير فى طريقها منـذ نشأة الدولة الاسلامية ، يرعاها النبى ومن

بعده ، أبو بكر ، وعمر ، ويشد أزرها هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله لا يبالون بحياة أو موت ، بل ربما كان المؤمنون أشد حرصاً على الحياة الآخرى ، يرحبون بالموت ما دام فى ميدان الجهاد ، لا تحركهم شهوة . ولا يدفعهم هوى . وكان أبو بكر وعمر فى الحق خير من يسوس هذه الأمة العربية ، الطموحة إلى الفتح ، المتحفزة نحو المجد ، فقد ساس كل منهما هذه الدولة سياسة متزنة رشيدة .

قصة الهرمزان

أما عثمان : فقد واجهته المشاكل والخطوب . وكان أول ما واجهه : مقتل سلفه عمر بن الخطاب . فلقد شاع عقب وفاته أن قتله لم يكن من عمل أبى لؤلؤة وحده ، بل كان هناك أشخاص آخرون اشتركوا فى قتله . إذ قال عبد الرحمن بن أبى بكر غداة طعن عمر : مررت على أبى لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى . فلما أرهفتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه فى وسطه فانظروا بأى شىء قتل . . . !! وقد ثار رجل فقتل أبا لؤلؤة وأخذ منه الخنجر . وما أن توفى عمر حتى أخذ قتل عمر

ابنه عبد الله سيفه ، فأتى الهرمزان فقتله ، ثم مضى إلى جفينة (١) . فعلاه عبد الله بالسيف . ولما سمع بذلك صهيب ، أرسل إليه من أتى به ، وأخذ منه السيف وحبسه ، حتى يتم الاستخلاف ، وينظر الخليفة الجديد فى أمره.

الثأر

موقف عثمان

فلما بويع عثمان جلس فى المجلس ، ودعا عبد الله ، ابن عمر ، ثم قال لجماعة المهاجرين والأنصار : أشيروا علىّ فى هذا الذى فتق فى الأسلام ما فتق .

فقال علىّ : أرى أن تقتله . فكبر ذلك على بعض المهاجرين . فقالوا :

ـ قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم .. ؟ !

فقال عمرو بن العاص :

ـ يا أمير المؤمنين : إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ، ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .

قال عثمان : أنا وليهم ، وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى .

---

(١) نصرانى من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبى وقاص الى المدينة ليعلم بها الكتابة .

تلك هى القضية الأولى التى واجهت عثمان بن عفان.

ومنها نرى تيارين مختلفين متضادين: فعلىّ بن أبى طالب ومعه الأنصار، يرون من الخير أن يقتل ابن عمر عملا بقوله تعالى: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص)، بينما نجد فريقاً آخر هالَه أن يقتل عمر بالأمس، ويقتل ابنه اليوم..! ولقد كان الحل الذى اهتدى إليه عثمان فى هذه الأزمة الحرجة، حلا موفقاً لما فيه من محافظة على روح ابن عمر من جهة، وعلى إرضاء أهل القتيل من جهة أخرى. اختلاف الرأى

وعلى الرغم من هذا الحل الذى وفق إليه عثمان. فأن الفريق الذى كان يطالب بقتل ابن عمر، ظل متمسكا برأيه. ومن هنا: كان أول خلاف قام بين الراعى والرعية. ذلك الخلاف الذى أخذ يشتد ويشتد حتى عظم خطبه، واتسع نطاقه، فشمل المدينة، كما شمل الأمصار، كما سيأتى بعد. أول خلاف

خطبة عثمان

كان من التقاليد الأسلامية أن يجتمع الخليفة بالمسلمين عقب استخلافه، يُعلن على الملأ: خطته الدينية،

والسياسية، والمالية . وجرياً على هذه التقاليد : اعتلى عثمان المنبر فى مسجد المدينة الذى كان بمثابة البرلمان الحالى، وأعلن للناس خطته فى هذه الدولة فقال :

نص الخطبة

« إنكم فى دار قلعة، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم صبحتم أو أمسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فانه لا يغفل عنكم.

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا ؟ ألم تلفظهم ؟ إرموا بالدنيا حيث رمى الله، واطلبوا الآخرة. فأن الله قدضرب لها مثلا ـ والذى هو خير ـ فقال عز وجل : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا).

المغزى العملى لخطبة عثمان

وهذه الخطبة ـــ فيما نرى ـــ لا تكشف فى الواقع عن خطة عملية، واضحة للخليفة الجديد، بل هى مجرد

نصائح دينية يتوجه بها عثمان إلى المسلمين، يزهدهم فى الحياة الدنيا، دون أن يلزم نفسه بسياسة خاصة يمكن أن يطمئن إليها الشعب فى خلافته الجديدة. وقد يرجع ذلك إلى طبيعة عثمان بن عفان ونفسيته، فهو شيخ قارب السبعين من العمر، كثير التعلق بآثار السلف، لا يرمى إلى دنيا. ولكن يرمى إلى دين.

كتب عثمان إلى الأمصار

طريقة حكمه

على أن عثمان ما لبث أن استدرك ذلك الأمر، فوجه همه إلى سائر الأقاليم الأخرى فبعث «منشورات دورية» ـ كما نقول الآن ـ إلى الأمراء، كما بعث مثل هذه المنشورات إلى أمراء الأجناد بالثغور، وعمال الخراج، وعامة المسلمين بالأمصار. وكل هذه المنشورات، ترمى إلى الأخذ بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإلى النظر فى أمور المسلمين بعين العدل، وبخاصة فى جباية الضرائب، ثم إنها ترمى إلى العطف على أهل الذمة وإعطائهم مالهم، وأخذهم بما عليهم.

وكأنما كشف عثمان بن عفان عن سياسته فى المستقبل حينما قال لأمراء الأجناد بالثغور:

« ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم . »

وكم كان سيدنا عثمان حكيما حينما نصح عمال الخراج فقال : أما بعد ـ فان الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانة الأمانة قوموا عليها . ولا تكونوا أول من يسلبها . فتكونوا شركاء من بعدكم . الوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن ظلمهم .

الرفق في جمع الضرائب

*

* *

هذه هى الخطة التى رسمها الخليفة لنفسه من الوجهة النظرية ، وهى خطة رشيدة لو أن من قام على تنفيذها خليفة ذو بأس وحزم ، يعرف كيف يقف فى وجه الزوابع والعواصف ، كما يعرف كيف يتخلص من الأهواء ، وما قد يحيط به من مؤثرات ونزعات .

الفتوح فى عهد عثمان

على أن عثمان إلى جانب هذه الخطة السلمية قد قام بفتوحات على جانب عظيم من الأهمية فى الست السنين

الأولى من حكمه ، نال فيها رضاء الأمة لنجاحه فى هذه الفتوح .

لكن ذلك الرضاء لم يلبث أن انقلب إلى سخط ، ثم إلى ثورة ، وذلك فى الست السنوات التالية من حكمه ، فقد أصبح هدفا لتلك الثورة التى أذكى نارها العامة ، والتى أدت إلى حصار داره وانتهت بقتله . . !

*
* *

الفتوح عامل للثورة

لم تلبث ريح الفتح والتوسع أن ركدت ، إذ شيد العرب امبراطورية متسعة الأرجاء ، فى مدة وجيزة . ذلك أن العرب قضوا على دولة فارس ، وانتزعوا أرض الروم ، وصارت رجالهم تقاتل على حدود الصين والترك ، كما أصبح ملكهم يتاخم بلاد النوبة . وكان ذلك الفتح مقرونا بحركة استعمارية عربية عنيفة ، حيث كانت القبائل العربية تهاجر من بلاد العرب وتستقر فى البلاد المفتوحة ، ومما يؤسف له حقيقة أننا لا نستطيع على وجه الدقة ، الوقوف على كنه ذلك النظام الاستعمارى ، إنما نعلم أن كل قبيلة كبيرة كانت تنتقل إما برمتها ، أو كانت تنتقل بطن من بطونها إلى هذا الأقليم أو ذاك . . !! ولذلك فنحن

نظام الاستعمار العربي

نسمع عن الأزد فى البصرة . بقدر ما نسمع عن الأزد فى الكوفة ، والأزد فى خراسان . . . الخ مما يدل دلالة واضحة على أن كل قبيلة كقبيلة الأزد تفرقت فى هذه الأنحاء. وكان طبيعياً أن ينقل هؤلاء معهم الروح العربية القديمة ، وما تمتاز به من تعصب قبيلى جاهلى ، وصارت تلك البطون — أو القبائل — تحيا حياتها الأولى ، من ميل للتعصب ، وحب للحرية المطلقة ، وتمرد على السلطان الباطش . وهى خصائص امتاز بها البدوى منذ القدم . تلك الخصائص التى كبتها تيار الفتح والتوسع ، وانشغال العرب فيها بالحرب والغزو . فما أن ركدت ريح الفتح أيام عثمان حتى أعطيت لهم فرصة التفكير فى أمرهم ، فظهرت فيهم روح العصبية من جديد (١) .

ولقد كان هؤلاء المستعمرون من الأعراب غير المتحضرين . وبعبارة أخرى من أهل البادية . ففى الفسطاط : كان العسكر عربياً ، كما كان كذلك بالنسبة إلى أجناد الشام والعراق ، والبصرة ، والكوفة ، والشرق عامة .

(1) Velhausen, Arab Kingoom & its Fall, P. 24

وإذاً فقد لاقت كل هـذه الا قطار مستعمرين أغراباً .
وهم في هذا الاستعمار ، إنما يكررون مسألة الهجرة عند
قدماء اليونانيين ، حيث ألقوا شباك استعمارهم على
الأراضي التي كانو يحلون فيها .

وإذا كان هؤلاء الأعراب هم مادة الاسلام كما قال
عمر بن الخطاب ، فقد اعتور تلك المادة الضعف من نواح
كثيرة : ذلك أنهم هم الذين قامت على أكتافهم هـذه
الدولة المتسعة الأرجاء ، في أعوام قليلة . ولهذا الاعتبار
نفسه ، استشعروا القوة من أنفسهم ؛ وعرفوا قدر نفوذهم
وسطوتهم .

رأى فلهوزن

ولقد أصاب فلهوزن حيث يقول في كتابه « المملكة
العربية وسقوطها » : وكانت المقاتلة تحتمل طالما كانت
تدر عليهم الغنيمة من هذه الفتوحات المتوالية . أما الآن
وقد منع توزيع الأراضي عليهم ، فقد أصبحوا يشكون
في موقفهم . وبعد أن كانت الحكومات تعتمد على مساعدة
الجيش ، أصبح الجيش يعتمد على مساعدة الحكومة .

ومن ثم لا نعجب إذا ظن المقاتلة أنهم خدعوا من
جانب هذه الحكومة ، التي كانت الخزينة عمادها ، والتي

سلطت نفسها عليهم ، ممسكة يدها عنهم ، ولا نعجب كذلك إذا صرحوا بأن النقود التي جمعت من الضرائب ، إنما هى لهم ، وليس للحكومة فيها حق ، وأن المال مال المسلمين وليس مال الله »(١).

الشعور بالظلم

ومن هذا تبين النزعة الجديدة ، وهى أن العرب أصبحوا يرون أنفسهم ، وقد استغلتهم الدولة تحت قيادة أمرائهم وساداتهم ، وانهم مع ذلك لا ينالون إلا قدراً غير يسير مما كسبوه بسيوفهم ، ومن ثم كانت العرب بوجه عام ، تبغض قريشا ، وتنظر بعين الحقد والحسد ، إلى ما كان لتلك الفئة من سلطان ونفوذ على من سواها من قبائل العرب .

تمايز الطبقات

هذا إلى أنهم أحسوا بفكرة تمايز الطبقات من المهاجرين والأنصار إحساساً قويا جداً ، بحيث رأوا هاتين الطبقتين مفضلتين على سائر العرب مع قلة حظ هؤلاء فى القتال ، وعظيم بلائهم كما يقولون .

أمام هذه الروح التي بدأت تظهر فى الأعراب النازلين فى الأمصار ، وهى روح الشعور بأن الظلم يعتورهم . أصبحنا

(١) Velhausen pp. 34-44. فلهوزن ص ٣٤ — ٤٤
والطبرى ج ١ ص ٨٢٥٨

نرى خطر الانقسام . هذا إلى أن قريشا كانت منقسمة إلى قسمين : بنو هاشم، وبنو أمية ، وقد بَعُدما بينهما لتنافسهما على الخلافة كما قدمنا . ومما زاد الطين بلة أن عثمان كان شديد الأثرة يؤثر أقرباءه وذويه ، حتى ليخيل الينا أنه كان يريد أن يجعل الحكومة الاسلامية . عثمانية لحما ودما كما سيأتي بعد :

*
* *

من كل هذا نستطيع أن ندرك إلى أى حد تغيرت الأحوال فى هذه الدولة الناشئة : فتلك البساطة الأولى التى كانت نتيجة بساطة القائمين بها أيام أبى بكر وعمر ، ثم روح الدين الاسلامى ، وهو فى جوهره يحتم البساطة التامة ، كل ذلك قد تغير ، إذ أن نزوح الأعراب من البادية قد غير هذه الحالة الساذجة ، إلى حد بعيد ، لا سيما بعد كثرة الغنائم ، والسبى ، ووفرة الأموال .

ولقد أصاب فان فلوتن حينما يتحدث فى كتابه « السيادة العربية » عن أثر هذه الفتوح فى نفوس العرب حيث يقول « ولم يكن بد من أن يكون ثمة أثر رجعى لهذه الفتوحات » وذلك ما حدث فعلا . وإلى القارىء ما كتبه المسعودى عن النتائج المحتومة لذلك الفتح ،

تلك العبارة التى تعتبر فريدة فى بابها . وقد ظهر أثره ذلك لأول مرة فى عهد عثمان بن عفان ، مما حدا بذلك المؤرخ العربى النزيه أن يقول : « ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب بل كانت جادة واضحة ، وطريقة بينة . فأين عمر عمن ذكرنا ؟ وأين هو عما وصفناه ؟ (١)

تغير الروح المعنوية

هذا إلى أن الناس قد ظلوا مسحورين بالدعوة الشخصية لبطل الشرق ، بل مبعوث الرحمة والاصلاح الانسانى محمد النبى الكامل عليه الصلاة والسلام . كما ظلوا مسحورين أيضاً بالدور الذى لعبه أبو بكر وعمر ، فى فجر الدولة الاسلامية . ولكن ذلك السحر ، أخذ فى الزوال شيئاً فشيئاً ، وصار التنافس على اقتناء الأموال أمراً غير مستنكر ، بعد أن كان أقصى ما يتمناه المسلم أن يموت تحت علم الجهاد ، وأن يبيت جائعاً طاوياً يتذوق مختلف الآلام الجسمية وهو شديد الاعتقاد أن الآخرة خير له من الأولى ، وأن ربه سوف يعطيه فيرضى . . !

---

(١) المسعودى (مروج الذهب) ج ٤ ص ٢٥٥ (مأخوذة من ترجمة السيادة العربية للدكتور حسن ابراهيم حسن ، والاستاذ زكى ابراهيم ص ٢٥)

ولكى نتصور مبلغ ما وصلت إليه البلاد الأسلامية من الثروة ، يكفى أن تقرأ ما ذكر المسعودى فى كتاب مروج الذهب من أن عثمان كان فى غاية الجود والكرم ، والسماحة والبذخ مع أقربائه وغيرهم : نصب أقرباءه على الأمصار ، واقتنى الأموال ، وبنى الديار ، وخلف الذهب ثم يقول : وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع ، منهم الزبير بن العوام : بنى داره بالبصرة وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والأسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه ، فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ ثمن ملك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس ، وألف عبد وأمة ، وخططاً كثيرة . وكذلك طلحة بن عبيد الله التميمى : ابتنى داره بالكوفة ، فى الكناسة المشهورة فى هذا الوقت بدار الطلحيين . وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا . وشيد داره بالمدينة ، وبناها بالجص والآجر والساج .

أمثلة للثروة

وكذلك عبدالرحمن بن عوف الزهرى : ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم . وبلغ بعد وفاته الربع من ماله ، أربعة وثمانين ألف دينار . وقد ذكر سعيد ابن المسيب أن يزيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ماكان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، كما جعلها مجصصة الظاهر والباطن .

ومات يعلى بن منية وخلف خمسمائة ألف دينار ، وديناً على الناس وغير ذلك .

ثم يقول المسعودى : « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملك من الأموال فى أيامه . ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة » . (١)

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥

وفى ذلك يقول فان فلوتن نقلا عن مروج الذهب للمسعودى : فى مدينة الكوفة جمعت الأسرات البارزة مبالغ ضخمة ، مما كانت تدره عليهم الغنائم والأعطيات السنوية ، حتى أن كوفياً رحل إلى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه (١)

وكان الصحابة أنفسهم يملكون الضياع والقصور والثروات الطائلة . أضف إلى ذلك ما كانوا يمنحونه من المنح العظيمة (٢) .

اشتداد المعارضة

ومهما يكن فى هذا القول من المبالغة فهو من غير شك يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حالة الدولة الأسلامية قد تغيرت زمن عثمان ، وكان من جراء هذا التغيير اشتداد روح المعارضة فى المدينة وفى الأمصار ، تلك المعارضة التى أصبحت — كما يقول فلهوزن — ترى الغبن والظلم ، وقد تحكمت بهما قريش ، وبخاصة فى الفيء . وبلسان هؤلاء يتحدث شاعر من أهل الكوفة :

---

(١) الطبرى : ج ٢ ص ٨٠٦

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٣ ترجمة السيادة العربيه للدكتور حسن ابراهيم حسن والاستاذ محمد زكى ابراهيم ص ٢١ و ٢٢.

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

هاتان هما المعارضتان اللتان نشأتا فى العالم الأسلامى : إحداهما فى المدينة والأخرى فى الأمصار . وكانت معارضة الأمصار أكثر عنفاً من معارضة المدينة ، حيث كان صوت المعارضة من الأنصار أقل حدة منه فى المدينة إذ كان مجرد احتجاج ، على حين كان فى الأمصار يدوى ، لأن الجند — وهم مادة الدولة — يستندون إلى الدليل الشرعى ، وإلى مبادىء العدل والحق ، يحمل الدعوة من بينهم زعماء لهم أثر ظاهر كما سيأتى بعد .

عوامل الثورة

عرضنا لسياسة عثمان بن عفان بصفة عامة ، والآن يجدر بنا أن نشير إلى الأسباب المباشرة التى أثارت سخط قريش وغيرهم من سائر العرب على عثمان ، وهى أمور وإن لم تبد على جانب كبير من الأهمية ، إلا أنها كانت فى حقيقة الأمر ذات قيمة خطيرة فى إثارة الجمهور . ومن ذلك مثلا :

الأسباب المباشرة

١ ـ جمع الناس على مصحف واحد

فالمعروف أن القرآن كان محفوظاً فى صدور الناس. وإن كان مدوناً على الأرواق والعظام والجلود وغيرها، إلا أنه لم يكن هناك مصحف واحد مجموع فى أيام النبى، بل كانت هنالك طبقة تعرف بالحفاظ قتل منهم عدد كبير فى وقائع الردة، وبخاصة فى موقعة اليمامة التى دارت بين خالد بن الوليد، وبنى حنيفة، ويقال إن عمر أشار على أبى بكر بجمع القرآن مخافة أن يضيع، فعمل أبو بكر بهذه النصيحة ومن ثم أمر زيد بن ثابت، أحد الكتاب، بجمعه كما يقول ابن الأثير، من الرقاع والعسب وصدور الرجال. وكان ذلك أول نسخ منظم للقرآن.

تاريخ المصحف الشريف

وقد ظلت الصحف عند أبى بكر، وهى نسخة واحدة حفظت عنده مدة خلافته، تناقلها بعده عمر، ثم ابنته حفصة.

وقد حدث أثناء غزو العرب بلاد الترك والخزر تحت قيادة حذيفة بن اليمانى أن اختلف المسلمون فى قراءة بعض الآيات: فبينما كان هذا يقرأ على رواية عبدالله بن مسعود،

إذا بآخر يقرأ على رواية شخص آخر ، وكلاهما يرجح رأيه ويدعمه بحججه . ومن هذا ندرك كيف تعددت المصاحف بجانب المصحف الأصلى الذى أشرنا إليه .

اختلاف الناس في قراءته

ولقد لاحظ القائد حذيفة اختلاف الجند فى قراءة القرآن ، فأشار على عثمان عند عودته بتدوين مصحف رسمى يقرؤه المسلمون دون غيره من مصاحف الصحابة. فأرسل عثمان إلى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب يطلب منها المصحف الذى جمعت صحائفه أيام أبى بكر . ثم إنه شكل — كما نقول الآن — لجنة مؤلفة من زيد بن ثابت أحد الكتاب، وعبدالله بن الزبير الصحابى وسعيد بن العاص وغيرهم ، وأمرهم بكتابة عدة نسخ ، ناصحا إياهم أن يكتبوا ما يختلفون فيه من قراءة الآيات بلهجة قريش ، فدونت المصاحف وأرسل مصحف إلى البصرة ومصحف آخر إلى الفسطاط ، كما أرسلت مصاحف أخرى الى أجناد الشام والكوفة .

تأليف لجنة للاصلاح

القرآن قانون الدولة

وكان غرض عثمان من ذلك انتشار كتب القانون فى صورة واحدة لا خلاف فيها ، ليستقيم الأمر فى كافة أنحاء الدولة ، وتلك هى نفس السياسة التى اتبعها الامبراطور

جستنيان الرومانى إذ جمع القانون الرومانى ونسقه ونظمه، ثم أرسل نسخا منه إلى سائر الولايات التى كانت خاضعة له . وفى الحق إن هذا لمن ألزم واجبات الخليفة أو القائم بأمر الدولة أيا كان لونها ، لأن توحيد القانون فى جميع أرجاء الدولة من شأنه أن يوحد الجهود فى تطبيقه ، بل فى فهمه وفى الأخذ به .

ولقد كاد الأمر يقف عند هذا الحد لولا أن عثمان أمر بأحراق مصاحف الصحابة والقضاء عليها قضاء تاماً، رغبة منه فى القضاء على أى اختلاف يقع بين المسلمين فى قراءة دستور الدولة وهو القرآن .

٢ - توسيع الحرم

التجديد عامل الثورة.

من الغريب حقا أن يكون توسيع الحرم النبوى عاملا من عوامل إثارة الناس على عثمان فالمعروف أن المسجد الذى بناه النبى بالمدينة كان صغيرا فى بادىء الأمر تمشيا مع طبيعة الأشياء ، وقد أخذت أهمية ذلك المسجد تزداد بازدياد بسطة الإسلام ، واتساع رقعته ، وكثرة عدد من اعتنقوه من العرب . فكان طبيعيا أن يهىء الحاكم فى المدينة

ذلك المسجد على أساس جديد يتسع لهذا العدد الزاخر من المسلمين. ومن ثم فكر عثمان في أن يشترى الدور المجاورة للحرم. إلا أن أصحابها أبوا عليه ذلك، فما كان منه إلا أن قرر وضع الثمن في بيت المال أمانة في عنقه لهؤلاء الملاك، وأمر بنزع ملكية هذه الأراضى. وهذا في حد ذاته حل على جانب من الحكمة والعدل إذ روعيت المصلحة العامة، وهو ما تسير عليه الدول في العصر الحديث. انتزاع الملكية

على أن انتزاع الأراضى دون رضاء أهلها وموافقتهم قد ولد في نفوسهم شيئا غير قليل من التذمر. فأنكروا على عثمان تصرفه، بل احتجوا وتطاولوا في احتجاجهم عليه، مع أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بالشكوى أيام عمر، لسعة نفوذه وقوة شخصيته (١).

٣ — تعديل في العبادة

ومن الأسباب التى أوجبت غضب المسلمين على عثمان ما أدخله من تعديلات طفيفة على العبادة فمن ذلك مثلا: أن مما يؤثر عن النبي عليه السلام، أنه كان يصلى في موسم

---

(١) الطبرى: ج١ ص ٢٨١١

الحج فى مكان خاص ، ولكن عثمان خالف هذه السنة وأتم الصلاة فى « منى » . وقد علل الخليفة ذلك ببعد الشقة . وعلى كل فقد كان ذلك التعديل مثاراً لكثير من القيل والقال ، وقد استنكره المسلمون مع أنه فى نظرنا لا يعدو أن يكون تصرفاً مرناً يلائم الأحوال ، وبخاصة أن المسافة كما قرر عثمان نفسه ، كانت من الطول بحيث تجيز إتمامها فى « منى » .

إيثار عثمان ذوى قرباه

ولعل ذلك الايثار أقوى الأسباب التى ملأت صدور المسلمين حقداً وموجدة ، إذ أقدم عثمان على ما لم يقدم عليه أبو بكر وعمر : فتراه يعزل العمال الذين ولاهم عمر بمجرد توليته الخلافة : جمع الشام كلها لمعاوية وهو أموى صميم ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاع . أما الكوفة فقد عزل عنها محمد بن عتبة واستعمل عليها سعيد بن العاص ، وهو أموى . وعزل عن البصرة أبا موسى الأشعرى ، وولى مكانه عبد الله بن عامر

المحسوبية
دا. ويل

الأموى ، وكان ابن خال عثمان ، فضلا عن حداثة سنه . أما فى المدينة : فقد جعل مستشاره ووزيره الأول مروان بن الحكم الأموى وكان ابن عمه (١) .

وكان فى مكة فى أول عهد عثمان ، نافع بن الحارث الخزاعى ، فعزله وولى العلاء بن الحضرمى ، وكذلك صرف سفيان بن عبدالله الثقفى عن الطائف ، وأثبت مكانه القاسم ابن ربيعة الثقفى ، وأثبت فى صنعاء واليها ، يعلى بن منية حليف بنى نوفل بن عبدمناف ، كما أقر على الجند عبدالله بن ربيعة وكان أمويا أيضاً .

من هم الأقارب والمحاسيب

يجدر بنا أن نقف وقفة يسيرة عند بعض هؤلاء الذين ولاهم عثمان الأمر فى الدولة الاسلامية : أما العرب جميعا فكانوا يبغضون قريشا بوجه عام ، وينظرون بعين الحقد والحسد إلى ما كان لتلك القبيلة من سلطان ونفوذ على من سواها من قبائل العرب (٢) . ولو كان ولى الناس قوما على جانب من التقوى والورع ، لكان ذلك داعيا لأخفات الصوت ضده ، أما أن يولى الأمر أبا سرح مثلا ، فقد كان

---

(١) الدينورى ص ١٤٠

(2) Browne. A Literary History of Persia. vol.I, pp.215-216.

من شأنه أن يزيد تبرم الأهلين به ، لأنهم كانوا يذكرون ماضيه ، وكيف كاد ينفذ فيه حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالاعدام ، لولا ما كان من شفاعة عثمان له .

يقول الأستاذ براون فى ذلك : إن الوليد والى الكوفة ، قد ذهب إلى المسجد لأداء الصلاة وهو ثمل لا يكاد يعى ما يقول (١) نعم . ! إن عثمان وإن كان قد عزله من ولاية الكوفة فانه لم يحدّه حد شارب الخمر الذى أمر به الأسلام إلا بألحاح من على بن أبى طالب ، رغم إرادة عثمان الذى عفا عن عبد الله بن عمر ، وقد قتل الهرمزان لاشتراكه فى تدبير قتل عمر مع أبى لؤلؤة ، ذلك الاشتراك الذى لم يقم عليه أى دليل . والذى من أجله طالب على بن أبى طالب عثمان بالقصاص من عبد الله بن عمر . لكن عثمان تحمل ديته تبعا لمشورة عمرو بن العاص ، كما أشرنا إلى ذلك آنفا

ثم ينتقل الأستاذ بروان إلى الكلام عن الوليد ابن عقبة فيقول :

انه « لم يكن يرعى شعائر الدين ، قتل الرسول أباه

(١) يذكرون أن الوليد كان يصلى بالناس الصبح وهو سكران ، فصلى ثلاث ركعات بدلا من اثنتين ، فلما نبهوه الى ذلك التفت اليهم وقال : والله لو شئتم لزدتكم صلاة !

عقب غزوة بدر الكبرى وقد أراد اغتيال النبي . وقال فيه النبي : إنه من أهل النار .

ولم يكتف عثمان بأسناد المناصب الكبرى إلى أقربائه، بل أخذ يتصرف فى الأموال التى كانت تأتى إلى بيت المال لتنفق فى شئون الدولة تصرفا يخالف من سبقه « النبى وصاحباه » وهؤلاء الثلاثة كانوا شديدى الحرص على أن ينفق الفيء فى مصالح الدولة ، ولكن عثمان تصرف تصرفاً غريباً ، إذ نفل عبدالله بن سعد الخمس عندما غزا إفريقية (١) ، وكذلك باع الخمس فى غزوة ثانية بثمن بخس لمروان بن الحكم. هذا فضلا عما أوردناه من إجازته لقريش أن يتملكوا العقار فى الأقاليم المفتوحة ، كالعراق والشام ، وما كان من استبداله بأملاكهم فى الحجاز أملاكا لهم فى الأمصار سواء كان حقا أو باطلا .

تصرف عثمان فى مال الدولة

وقصارى القول فقد سار عثمان سيرة رضى عنها المسلمون فى الشطر الأول من خلافته ، ثم لم يلبث أن أثار السخط بالانحراف عن سياسة أبى بكر وعمر ، وكان بذلك كما وصفه لنا صاحب أشهر مشاهير الاسلام حيث يقول :

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٩

«أجمع الرواة وأهل الأخبار على أن عثمان قضى الشطر الأكبر من خلافته وهو أحب إلى الناس من عمر لشدته، ورأفة عثمان ولينه، وإقبال الدنيا على الناس عهده، وتبسطهم فى المعيشة، وامتلاء أيديهم من المغانم. لكن غلب عليه بنو أمية فى أواخر مدته. فآثرهم على غيرهم من قريش، ووصلهم بالأموال الكثيرة، فانحرفت عنه من أجل ذلك القلوب، ونظرت إليه قريش بغير عين الرضا، ونهض لمناقشته الحساب أهل الأمصار. وتخلل ذلك أمور خفية وجلية، أدخلها الناس فى غمار فتنة عمياء، كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية، وغلبت القوة والأثرة على الملك إلى اليوم (١).»

وقد تقدم القول بأن عثمان بن عفان قد اختار ابن عمه مروان بن الحكم ليكون مستشاره ووزيره الأول. وفى الحق أن شخصية مروان بن الحكم من الشخصيات التى يصح أن تدرس دراسة منفردة، لما كان له من الأثر العميق فى سير هذه الفتنه التى اهتزت من أجلها الدولة الأسلامية وهى فى مستهل حياتها، فأليه وحده يرجع السبب

مروان ابن الحكم

(١) أشهر مشاهير الأسلام لرفيق بك العظم ج ٤

فى تأليب وفد مصر الذى قدم إلى عثمان يلومه فى بعض أمره كما سيأتى ذلك فيما بعد .

وقد بلغت درجة تأثير مروان فى الخليفة أن عثمان كان يبدى رأيا ويعلنه فى الناس ، فاذا اجتمع به مروان أنكره وحمله على تغيير رأيه . فما يلبث عثمان بعد ساعات أن يعلن فى الناس عكس ما كان أعلنه فيهم من قبل. وكأنى بهذا الداهية قد أدرك تمام الأدراك ما انطوت عليه نفس عثمان من الطيبة واللين فصار يستولى على الأمر بيده شيئا فشيئا حتى قبض فى الحقيقة على ناصية الحال من وراء الستار ، حتى ليصح القول بأنه كان الخليفة الفعلى فى الدولة الاسلامية .

أساليب مروان بن الحكم

وقد اتخذ مروان من الأساليب الغريبة ما استطاع به أن يوغر صدر الخليفة حتى على كبار الصحابة ، فليس من اليسير أن نفهم سر هذه التنقلات السريعة التى كان يجريها عثمان بن عفان فى إبان حكمه بين ولاة الأقاليم، إلا أن يكون لمروان أصبع كبير فيها . ولقد بلغت به الجرأة فى بعض الأحيان أن يوغر صدر عثمان فيقول له :

ـ من على الناس أمير المؤمنين . أعلى وابن عوف والزبير

وهذا يدل دلالة واضحة على ما كان لمروان بن الحكم من الأثر الظاهر فى تسيير شئون الدولة ، الأمر الذى اضطر الشعب من أجله إلى كراهية مروان ، وبالتالى كراهية عثمان نفسه . والشعب فى نظرنا معذور إذا هو رأى أمور الدولة فى يد مروان دون عثمان ؛ وليته كان يسير دفة الأمور وهو يرعى المصلحة العامة ، ولكنه مع الأسف كان يسيرها وفق مصالحه وأهوائه ، بحيث يصح القول بأن عثمان — أو مروان بمعنى آخر — كان يريد أن تكون الحكومة الاسلامية عثمانية لحماً ودماً . أو إن شئت فقل أموية لحماً ودماً . . . !

الباب الثانى

الفتنة فى الأمصـــار

الفصل الأول

انتشار الفتنة

لئن ظهرت نتائج تلك الثورة فى المدينة ، فقد كان رأس الفتنة فى الأمصار ، تلك الأمصار التى كانت مرتعاً خصباً للتألب على عثمان ، والسخط على سياسته ، يحرك هذا الحقد فى الصدور تلك العوامل التى بيناها قبل . يضاف إلى ذلك هذه الحركات الثورية العنيفة التى ما فتىء العلويون يقومون بها منذ وفاة النبى ، ومآل الأمر لأبى بكر ، إلى أن جاءت سياسة عثمان ، فكانت أكبر عون على إشعال نيران الفتنة والانتقاض على عثمان نفسه .

ولقد أذكى نيران هذه الثورة صحابى قديم ، اشتهر بأنه أول من حيا النبى بتحية الأسلام ، وبأنه رابع (أو خامس على رواية أخرى للطبرى) من اعتنق هـــذا الدين ، واشتهر بالتقوى والورع ؛ وكان من كبار أئمة الحديث . ذلك هو أبو ذر الغفارى .

والآن نتكلم عن حال تلك الأمصار ، مصدر هذه الفتن والقلاقل التى جرّت إلى قتل الخليفة الرشيد الثالث حتى يسهل علينا أن ندرك كيف وجدت دعوة ابن سبأ طريقها إلى نفس أبى ذر خاصة ، ونفوس المسلمين عامة .

الفتنة فى الكوفة

كان على الكوفة سعد بن أبى وقاص ، ثم عبد الله ابن مسعود ، ثم عزل عثمان سعداً ، وولى الوليد بن عقبة كما تقدم . وقد حدث أن قتل ابن الحيسمان الخزاعى ، وضبط القتلة واقتص منهم فاضطغن آباء القتلة على الوليد .

وقد عبث الوليد بمنصبه فصار له ندماء وسمار ، نذكر منهم : أبا زبيد الطائى ، وكان نصرانياً فأسلم . فبينما كان الوليد فى مجمع من هؤلاء الندماء يحتسون الخمر ، إذ اقتحم الجمهور داره ولم يكن لها باب ، وفتشوا المنزل فوجدوا الخمر وأخرجوه من تحت سرير الوليد . يضاف إلى ذلك أيضاً أن الخلاف قد نشب بينه وبين ابن مسعود الذى أعلن « أن من استتر عنا بشىء لم نتتبع عورته ، ولم نهتك ستره » وكأنه بذلك قد وافق على أن الوليد كان يشرب

ولاية الوليد

شرب الخمر

الخمر ، هـــذا إلى ما أشيع حوله من أنه ساحر يسحر في منزله .

على أن الوليد كان محبوباً لحسن سياسته الاقتصادية في الكوفة حتى قال النساء :

ياويلتا قدعزل الوليد وجاءنا مجوعا سعيد
ينقص في الصاع ولا يزيد فجوع الأماء والعبيد

ولاية سعيد بن العاص

ولما ولى سعيد بن العاص الكوفة أغضب أهل العراق وأقصاهم عن أرضهم ، وأعلن في طيش ونزق « أن السواد بستان قريش » بمعنى أنه لهم يحتلبونه كيفما شاءوا . فلم تزد هذه السياسة الحال إلا شططاً ، وأثار بذلك سخط الأهلين . وقد أعلن هذا السخط عن نفسه في معارضة الأشتر ، وغيره من رجالات الحكومة ، هذه السياسة . ويظهر لنا هذا العداء واضحاً جلياً فيما رواه صاحب نهج البلاغة (١) ، فقد ذكر أن سعيداً قال

العراق بستان قريش

«إن السواد بستان لقريش وبني أمية » فقال الأشتر النخعي :

ـــ وتزعم أن السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ فقال صاحب شرطته : أترد على

(١) نهج البلاغة ص ١٥٨ — ١٥٩

الأمير مقالته ؟ وأغلظ له . فقال الأشتر لمن كان حوله من النخع وغيرهم من أشراف الكوفة : ألا تسمعون ؟ فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً وجروا برجله . فغلظ ذلك على سعيد وأبعد سماره ، فلم يأذن لهم بعد ، فجعلوا يشتمون سعيداً فى مجالسهم ، ثم تعدوا ذلك إلى سب عثمان . واجتمع إليهم ناس كثير حتى غلظ أمرهم . فكتب سعيد إلى عثمان فى أمرهم . فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام لئلا يفسدوا أهل الكوفة . وكتب إلى معاوية وهو والى الشام : إن نفراً من أهل الكوفة قد هموا بأثارة الفتنة وقد سيرتهم إليك فانههم ، فان آنست منهم رشداً فأحسن إليهم واردهم إلى بلادهم .

وفد أهل الكوفة

فى حضرة معاوية

فلما قدموا إلى معاوية (١) درس أمرهم ، وكان بينه وبينهم محاورات تصل أحياناً إلى درجة الغضب والسباب سواء من جانب معاوية أو من جانبهم . ولقد بدأهم النقاش بالتى هى أحسن : ولكنها لم تثمر فيهم. فتوعدهم شراً إذا هم

(١) كانوا الاشتر وكعب بن مالك الارحبي والاسود بن يزيد النخعى وعلقمة بن قيس النخعى وصعصعة بن صوحان العدوى وغيرهم .

عادوا إلى التمرد والعصيان على أولى الأمر فى الولايات الأسلامية . ثم كتب الى عثمان :

كتابه إلى عثمان « إنه قدم علىّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان ، أثقلهم الأسلام ، وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشىء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم . ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينكون (١) أحداً إلا مع غيرهم ، فانهَ سعيداً ومن قبله عنهم ، فانهم ليسوا بأكثر من شغب أو نكير » .

فلما وصل ذلك الكتاب إلى عثمان كتب إليه أن يردهم إلى سعيد بن العاص فى الكوفة فردهم . فأطلقوا ألسنتهم فى ذمه وذم معاوية وعيبهما . فكتب إلى عثمان ليسيرهم إلى حمص ، فسيرهم اليها حيث تلقاهم عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد فجمعهم وأشبعهم تعنيفاً وتقريعاً مدة شهر من الزمان أذلهم فيه ذلا كبيراً . ثم كتب الى عثمان يسترضيه عنهم ويسأله فيهم فأمر عثمان بردهم إلى الكوفة ، ولكنهم أشفقوا من ذلك فبقوا فى الجزيرة .

---

(١) نكيت من باب رميت والاسم النكاية بالكسر اذا قتلت وأثخنت والمراد هنا وصفهم بالجبن .

وفى تلك الأثناء أخرج سعيد كثيراً من الزعماء ورءوس أهل الكوفة فيما يليها من فارس ، فخلت الكوفة من الرؤساء والأشراف وأهل السابقة . وكان سعيد قد خرج إلى عثمان ، ومن ثم عادوا إلى بغيهم وفسادهم : إذ حدث آخر سنة ٣٤ هـ (يونيه سنة ٦٥٥ م) بينما كان الأمراء والعمال على الحج مع الخليفة فى مكة إذا بالثورة يندلع لهيبها على يد رجل يمنى من أخص أصدقاء على ابن أبى طالب هو مالك بن الأشتر ، فقد اتفقت جماعة من أهل الكوفة على أن يجتمعوا خارج الكوفة ليحولوا دون دخول واليهم سعيد بن العاص .

مالك بن الأشتر زعيم الثورة

فلما أراد سعيد بن العاص العودة إلى الكوفة تلقوه من « الجرعة » (١) وردوه لا يريدون دخوله عليهم أميراً . فعاد إلى عثمان . فلم يغير من إرادة القوم وغلوا فى الطلب وتقدموا اليه أن يولى عليهم أبا موسى الأشعرى فأجابهم ولكن إلى حين . . . ! (٢)

ولم يكن عزل سعيد بن العاص فى نظرنا هو غاية ما يرمى إليه هؤلاء الناقمون ، بل لعله مظهر من مظاهر ذلك

---

(١) الجرعة قرية خارج الكوفة (٢) فلهوزن ص ٤٤

الغليان الذى كانت تموج به هذه الأقطار . يؤيدما ذهبنا إليه ما كان من جمع عثمان بعض صحابته فى هيئة مؤتمر للشورى للنظر فى حال المسلمين، بعد أن شعر عثمان أن التيار يسير فى طريق مناوأته: ذلك أن عثمان أرسل يستدعى عبدالله بن سعد بن أبى سرح، ومعاوية بن أبى سفيان وسعيد بن العاص — وكان بالمدينة — وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاص.

مؤتمر عثمان للشورى

وقد تناولت هذه الجماعة المسألة، لا من حيث الشكل فقط، بل وصلوا الى البحث فى جوهر ذلك النزاع، وهذا الانتقاض. واختلف هؤلاء الناصحون — كما كان يسميهم عثمان — فأما عبد الله بن عامر: فقد كان يرى أن سبب هذا الاضطراب كله إنما هو ركون الناس إلى الترف وإعطاؤهم الفرصة للتفكير فى سياسة الدولة العامة. وأشار على عثمان بأعلان الجهاد من جديد، ليشغلهم بذلك عن المطالبة بالتدخل فى أمور الحكم وغيرها.

البحث فى علاج الثورة

أما سعيد بن العاص: فقد رأى أن يقتل عثمان رؤساء الفتنة، فلا يعود يسمع منهم شكاتهم، أو يرى منهم اعوجاجا.

ورأى عبدالله بن سعد : أن الناس أهل طمع ، وطلب إلى عثمان أن يعطيهم حتى تعطف عليه قلوبهم .

رأى عمرو بن العاص

أما عمرو بن العاص : فكان ماكراً بعيد النظر إذ قال: أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون : فاعتزم أن تعتدل ! فأن أبيت ، فاعتزم أن تعتزل ! فأن أبيت ، فاعتزم عزماً وامش قدما . . !

فقال عثمان :

ـــ ما لك قمل فروك ! أهذا الجد منك ؟

فسكت عنه عمرو حتى إذا تفرق الجمع قال له :

ـــ لا والله يا أمير المؤمنين: لأنت أعزّ على من ذلك، ولكنى علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولى ، فيثقوا بى ، فأقود إليك خيرا ، أو أدفع عنك شرا . (١)

نحن نرى أن خير ما كان يقوم به عثمان فى هذا الظرف أن يعمل على تحقيق ما ارتآه عبد الله بن عامر من فرض حرب جديدة حتى يشغل هؤلاء المشاغبين بالجهاد، أما موافقته على صرف سعيد بن العاص وتولية أبى موسى

(١) شرح نهج البلاغة ص ١٦٠ ـــ ١٦١

الأشعرى بدلا منه ، فكان معناه واضحا جليا فى نظر عامة الكوفة ، الذين استطاعوا أن يلمسوا ضعف الخليفة من كتابه اليهم وفيه يقول :

عزل سعيد بن العاص

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فقد أمّرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد . والله لأفرشنكم عرضى، ولأبذلن لكم صبرى ولأستصلحنكم بجهدى . فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم علىّ حجة » .

والخلاصة أن الكوفة كان ينتابها شيء غير قليل من الاضطراب والقلق ، وغلب الغوغاء فيها على أهل الحلم ، وضعفت كلمة الأمراء ، وزالت من نفوس الكوفيين هيبة الحكام وتلاشت الطاعة من نفوسهم . ولعن عثمان على ملأ من الناس (١) .

---

(١) الطبرى ١ : ٢٩٢٦ وما يتبعها من حوادث سنة ٣٢ هـ

الفتنة فى البصرة

لم تكن البصرة فى هذه الأحوال كما كانت الكوفة من حيث قوة اضطرابها وثورة أهلها . ولكنها كانت على كل حال من مراكز هذه الفتنة . وقد أثار هذه الأمصار رجل من صنعاء ببلاد اليمن ، دب إلى البصرة فى السنة الثالثة من حكم واليها عبد الله بن عامر ، وهو رجل غريب الأطوار : ذلك هو عبد الله بن سبأ ويكنى ابن السوداء (ولعل أمه كانت جارية . . !) وهو محور ذلك الاضطراب الذى ساد البصرة حيناً ، ودفع بأهليها الى الانتقاض على عثمان بن عفان والخروج عليه .

ابن السوداء

دعوة عبد الله بن سبأ

كان عبد الله بن سبأ يهودياً ، وكانت اليهودية متأصلة فى نفوس أهل هذه البلاد منذ أيام الجاهلية ، فلا عجب إذا ارتوى عبد الله بن سبأ من هذه الديانة التى ظلت تلازمه بينه وبين نفسه ، حتى بعد أن أعلن إسلامه ، وآية ذلك أنه

من هو ابن سبأ ؟

أظهر إسلامه كى يضل الناس ، ويحملهم على الشك فى أمر دينهم . ومتى اعتور النفس المؤمنة الشك فى دينها ، انهار ركن من أهم أركان الدين وهو الايمان . . !

كان إسلام ابن سبأ فى السنة السابعة من حكم عثمان ابن عفان ، أى سنة تسع وعشرين أو ثلاثين من الهجرة . وقد أخذ ينتقل بعد إسلامه فى الأمصار الاسلامية ينفث تعاليمه الغريبة . مبتدئاً بالحجاز ثم بالبصرة فالكوفة ، ومنها إلى الشام فمصر . وكان له فى كل قطر من هذه الأقطار شأن يذكر . وكان يقول : عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد . عجباً لكم أيها المسلمون : يكون فيكم أهل بيت نبيكم ، ثم يقصون عن أمركم . . !

وسائله

رجعة محمد

وقد ذهب إلى أن علياً أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان . وهى دعوة شيعية صريحة فى الظاهر . أما جوهرها فقلب نظام الاسلام ، وإلقاء بذور الفتنة بين هذه الكتلة التى كانت غير متماسكة فى الجاهلية ، والتى ألف الله بين قلوبها فى الاسلام !

أحقية على

وكان والى البصرة زمن عمر وفى الشطر الأول من خلافة عثمان أبا موسى الأشعرى: ثم ثار أهلها سنة ٢٩ ﻫ على أبى موسى وطلبوا من عثمان عزله! فنزل عند إرادتهم، وولى بدله عبد الله بن عامر كما تقدم، وفى زمن هذا الوالى الجديد جاء عبد الله بن سبأ إلى البصرة بعد أن أسلم فلقيه عبد الله بن عامر وسأله: — من أنت؟

قال: رجل من أهل الكتاب رغب فى الأسلام ورغب فى جوارك.

فقال: مايبلغنى عنك. فاخرج عنى!

فخرج إلى الكوفة، فأخرج منها وسار إلى الشام، ثم إلى مصر حيث وجد مهده بعد أن نفث فى العراق مانفث.

أثر الدعوة الاشتراكية السبئية

ولسنا نشك فى أن الدعوة السبئية قد لاقت مرعى خصيباً فى نفوس هؤلاء الأهلين، الذين كانوا جنود الدولة وعدتها، لأنها كانت دعوة تستند إلى التعظيم من شأن الرسول، ورفعته من جهة، ثم إلى هز نفوس هؤلاء الجند بالضرب على ذلك الوتر الحساس فى ذلك الوقت، وهو حالتهم الاقتصادية. ومتى لاحظ هؤلاء الجنود كيف يذهب فيئهم فى غير وجوهه انقلبوا ينتقدون رئيس

الدولة الذى يسمح بمثل هذا ، وإذا رأوا شيوخهم يعزلون عن البلاد التى فتحوها كى تسلم القيادة إلى فتية ليس لهم من الكفاية ما كان لولاتهم من العرب ، نفرت نفوسهم ، وطفقوا يحصون على الوالى الجديد أعماله ، ويغلون فى إظهار مساوئه . ومتى بلغ الحال هذا المدى ، بدأ النقد يتخذ شكل التذمر ، وبدأت الألسنة تنطق بما دار فى النفوس من التهم .

ومن ثم كانت البصرة إحدى الأمصار الهامة التى اندلعت بنيران الفتنة القاتلة . وكان البصريون ركنا هاما من الأركان التى قامت عليها الثورة ضد عثمان بن عفان لعزله أولا ثم انتهت بقتله أخيراً .

الفتنة فى الشـــــام

للشام ميزات تميزه عن بقيـة الأقطار الأسلامية فى هذه الأوقات فأن لولاية معاوية هذه البلاد أثراً كبيراً فى هذا التميز وذلك الاختلاف عن الأقطار الأخرى . فقد جمعت له هذه البلاد كلها جنداً بعد جند (١) فأصبح هو

مدى استعداد الشام للثورة

(١) كانت الشام منقسمة إلى خمسة أجناد : حمص ، حلب ، دمشق ، بيت المقدس ، حماة . فأخذ معاوية يضع يده فوق الأقليم جنداً بعد جند حتى آل كله اليه !

الحاكم المتصرف فى شئونها. ودانت له بالطاعة.

واستطاع معاوية أن يخضع الأهلين فيه خضوعا كانوا يلمسون معه حسن سيرة حاكمهم وحرصه على العمل لمنفعتهم. هذا فضلا عن أن عرب الشام كانوا من طراز آخر غير عرب الأمصار الأخرى، إذ كانوا على مقدار من الثقافة والتحضر، مما مكّن الأمر لمعاوية فى هذه البلاد.

ولقد اختلف المؤرخون فى حقيقة هؤلاء الأعراب فاما أنهم كانوا من عرب الحجاز الذين انطلقوا إلى الشام ليكونوا إلى جانب معاوية ينصرونه ويشدون أزره، وإما أن يكونوا قد استوطنوا الشام قبل معاوية بزمان سحيق مرتضين الخضوع للنظام الرومانى الذى طبع نفوسهم على حب النظام والاستقرار، ونفّرهم من الثورات والانتقاض على نظم الحكم القائمة. ومهما يكن من شىء، فقد كان لتمدنهم أكبر الأثر فى الرغبة عن الفوضى. أصل عرب الشام

هذا، ويجب ألا يعزب عن البال أهمية سياسة معاوية بن أبى سفيان نفسه، فان دهاءه وحسن سياسته، دهاء معاوية إلى جانب مكثه الطويل فى حكم الشام، قد أفسح له الطريق ليحكم الشام حكما حازماً، يكاد يكون شبه

مستقل ، حتى إنه طالما كان يقول : إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له كيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدّوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها (١)

لذلك لا نعجب إذ رأينا بذور الفتنة لا تجد جواً صالحاً للنمو فى نفوس أهل الشام ، وبخاصة بعد أن تعهدها معاوية حتى استطاع أن يستأصل شأفتها ويبعد عنه من ظهر بالمناداة بالسخط على النظام ، كابن سبأ ، وأبى ذر الغفارى .

وليس معنى هذا أن الشام لم تصخ إلى الدعوة إلى الفتنة كلياً ، إذ قد تلقت الشام هذه الدعوة وترددت بين أجوائها ، إلا أنها لم تلق النجاح الذى لاقته فى الأمصار لما قدمنا من الأسباب .

وأول من بذر بذور الفتنة فى الشام ؛ رجل صحابى قديم اشتهر بالتقوى والورع هو أبو ذر الغفارى ، الذى افتتن بدعوة ابن سبأ . ولقد نادى ابن سبأ بمبادئه ففطن

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٨

إلى خطورتها معاوية ، وأسرع بأخراج ذلك الداهية ، أى ابن سبأ ، عن الشام ، فرحل إلى مصر حيث وجد النفوس مهيأة لاعتناق هذه المبادىء ، والعمل على تحقيقها .

ولكى ندرك مدى الخطر الناجم عن هذه الدعوة فى الشام يجدر بنا أن نتكلم عليها بشىء من الأسهاب فنقول :

ما هى هذه الدعوة

كان المسلمون طبقتين متباينتين ، فأما الأولى فارستقراطية حاكمة ترفل فى حياة رغدة هنيئة . وأما الثانية فطبقة رأت نفسها بلا حول ولا قوة ، فاضطغنت نفوسهم ، وحنقت هذه النفوس على هذه الحياة المترفة التى يحياها أهل الطبقة الأولى . وزادهم حنقاً أن الدستور الأسلامى الخالد لم يترك الأمر دون نص ، بل أنه سبحانه وتعالى لم يفضل مسلماً على مسلم إلا بالتقوى فقال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) هذا فضلا عن أنهم رأوا رجال الدولة يسمون الفىء مال الله حتى يستطيعوا أن يستأثروا به ليتصرفوا فيه كيفما شاءوا .

أحفظت هذه الحال أبا ذر الغفارى ، وهو ذلك الصحابى القديم ، فقام يعلن برنامجه لأصلاح هذه الحال ، وصادف ذلك وجود ابن السوداء فى الشام ،

فصار يقول له : يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه (١) دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ؟ وهـذه هي نفس الفكرة التي كانت تختلج في صدر أبي ذر الغفاري .

برنامج الإصلاح

ويتلخص ذلك البرنامج الاصلاحي في أن يسمى الفيء مال المسلمين ، وفي أن يشفق هؤلاء الأغنياء المترفون على أولئك الفقراء البائسين ، وأنه لن يتأتى ذلك إلا إذا نزل الأغنياء عن هـذه الثروة إلى من لا ثروة لديهم ، متبعاً في ذلك قاعدة المساواة مستنداً في هذه الدعوة إلى الآية الكريمة (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعـذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .

كان أبو ذر الغفاري ينادي بوجوب عـدم التملك ، فمن كان عنـده قوت يومه فليكتف به دون أن يطالب

---

(١) احتجن المال أي ضمه واحتواه

بقوت غده . وبعبارة أخرى ، كان أبو ذر أول من نادى بالاشتراكيه المتطرفة فى الأسلام ، ودعا إليها هذه الدعوة الصريحة . وقد كان حسن النية فى هذه الدعوة بعكس ابن سبأ ، الذى لم يعتنق الأسلام إلا ليضل المسلمين ويكيد للأسلام ، فكان بذلك من أقوى العوامل لأثارة الناس على عثمان (١) كما كان مخلصاً غير منافق فى هذه الدعوة التى ما فتىء معاوية يعمل على إحباطها . ولقد أحب معاوية بادىء ذى بدء أن يختبر صدق دعوة أبى ذر ، فبعث إليه ألف دينار وسط الليل ، فلما كان الصبح أرسل إليه يستردها محتجاً بأمر اختلقه ، ولكن لشد ما كانت دهشة معاوية حينما عاد إليه الرسول يوقن له أن أبا ذر قد وزعها كلها . . . !

الاشتراكية فى الاسلام

من هنا علم معاوية أن أبا ذر جاد غير هازل فى هذه الدعوة . ومن ثم أرسل يحاجه . وقبـــل على سبيل الترضية أن يسمى الفىء « مال المسلمين » بدلا من تسميته « مال الله » . ولكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنياء

---

(١) الفاطميون فى مصر للدكتور حسن ابراهيم حسن ، ص ٢٥

عن أموالهم للفقراء (١) . وهو أمر فيما نرى لم يكن من جوهر الدين الاسلامى فى شىء ، حيث لم يحظر الأسلام الثروة أو الملكية ، وإنما كل ما على المسلم فى ماله . حق للسائل والمحروم ، ولا يمكن ، مع فرض الزكاة ، أن تمشى الروح الأسلامية ضد التملك بأنواعه المختلفة ، اللهم إلا إذا قصد المالك أن يجمع الثروة جاعلا نصب عينيه تلك الثروة غرضاً مقصوداً لذاته .

الاشتراكية فى الاسلام

ضاق عثمان ذرعاً بأبى ذر ، فأرسل إلى معاوية ليجهزه إليه ، ففعل . فلما دخل المدينة وجد الاجتماعات تعقد ضد عثمان بن عفان ، فنادى فى المجتمعين « بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار . » كأنه تنبأ فى ذلك بالثورة التى قضت على عثمان بن عفان (٢) .

عزم أبو ذر على أن ينفذ برنامجه كاملا . وعبثاً حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته ، ومن ثم أمر بنفيه ، لا عقوبة له ، ولكن تخلصاً منه ومن خطره على المجتمع ،

---

(١) الطبرى ١ : ٢٨٥٨ و Von Kramer, I, p,339
(٢) الطبرى ١ : ٢٨٥٩

وحصراً للدعوة فى دائرة ضيقة . وقد نفاه إلى الربذة (١) وهى مكان ناء عن المدينة وأجرى عليه رزقاً فيما يقولون .

وفى الحديث الشريف ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن أبى ذر « رحم الله أبا ذر ! يمشى وحده . ويموت وحده ، ويبعث وحده ، . » وقد روى ابن إسحق عن عبدالله ابن مسعود قال :

« لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة وأصابه بها قدره ، لم يكن معه أحـــد إلا امرأته (وابنته فى موضع آخر) وغلامه ، فأوصاهما أن اغسلانى وكفنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطريق : فأول ركـــب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعينونا على دفنه . فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق . وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهـل العراق عُمّاراً ، فلم يرعهم إلا الجنازة على ظهر الطريق قد كادت الأبل تطؤها . وقام إليهم الغلام وقال :

ـــ هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى عليـه وسلم

---

(١) ابن هشام طبعة وستنفيلد ج ٢ ص ٩٧١
ورسائل الخوارزمى ص ١٣١

فأعينونا على دفنه . قال : فاستهل عبدالله يبكى وهو يقول صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك . . . !

ثم نزل هو وأصحابه فواروه . . . . ! (١)

موت أبى ذر

وعلى هذه الصورة مات أبوذرسنة ٣١ هـ — ٦٥٢ م فاختفى عن مسرح الحوادث إذ ذاك أكبر داعية اشتراكى فى الدولة الإسلامية . إلا أن دعوته كانت قد انتشرت من الشام إلى الحجاز ؛ فظل صوته داوياً يتردد فى نفوس أهل الأمصار ، وبخاصة الفقراء منهم ، الذين وجدوا فى هذه المبادىء فرصة مواتية للعمل على كسب قوتهم .

على أن الباحث المحقق ليرى فى دعوة ابن سبأ ، ثم فى دعوة أبى ذر ، بعض الشبه بالحركة الفارسية القديمة ، حركة مزدك الشيوعى ، الذى كاد يقلب فارس رأساً على عقب ، لولا سهر أنو شروان وحكمته (٢) . ذلك

(١) سيرة ابن هشام طبعة وستنفلد ج ٢ ص ١٠٩

(٢) مزدك : رجل ظهر فى مدينة نيسابور فى فارس أيام قباذ كسرى بلاد الفرس

وكان مزدك يرى أن الناس يولدون متساوين فى الطبيعة . وأن من دواعى

أن الحركتين المزدكية أولا — ثم السبئية والغفارية ثانياً — متفقتان من حيث وجوب نزع الثروة من الأغنياء ، وإطلاق المساواة إلى أقصى حدودها بين الأفراد . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان ابن سبأ من صنعاء ترلى بها واشربت نفسه بما كان فيها من نِحَل وميول كما قدمنا .

اشتراكية صريحة

الحقد بين الأفراد والطبقات تملك البعض واختصاصهم بأشياء لهم وحدهم دون الآخرين . وقد ذهبت المزدكية الى وجوب تحريم الاختصاص بشىء حتى النساء . ا

والحركة المزدكية الى جانب ناحيتها الاقتصادية المتقدمة ، تعاليم تبعث على احترامها من الناحية الأدبية مثل تحريم الخمر وذبح الحيوان .

المبادىء المزدكية

وقد اعتنق قباز هذا المذهب . وكان هذا فيما يظهر سياسة منه حيث وجد طبقة كبيرة من الممولين الأغنياء ، فأراد أن يكسر شوكتهم ويحد بذلك من سلطانهم ونفوذهم ، على أنه لم يلبث أن تنكر لهذا المبدأ فى أخريات حياته .

وتولى بعده كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) وكان عدوا لمزدك وللمزدكيين واستهل حكمه بأن شن غارة شعواء على المزدكية وأنصارها فقتل مزدك وكثيرين من أشياعه حتى أنه قتل منهم مائة ألف . . . ا

على أن المزدكية لم تمت بموت زعيمها وكثيرين من أنصارها بل بقيت وظهرت بعد ظهور الاسلام بشكل آخر — سواء فى الدعوة السبئية أيام عثمان أو فى حركة الاسماعيلية .

الفتنـــة فى مصر

لما لم يفلح ابن السوداء فى نشر دعاية واسعة النطاق فى الشام ، خرج إلى مصر لبذر بذور الفتنة ، فنشر بين الناس تعاليمه الغريبة ، تلك التعاليم التى صادفت مرعى خصيباً فى نفوس المصريين الذين لم يلبثوا أن لعبوا دوراً خطيراً فى هذا الحادث الجلل : مقتل عثمان ابن عفان . . . !

ابن سبأ فى مصر

كان ابن سبأ يتصل بمن يتصل به . فيلقى فى روعه أن لله ألف نبى ، وأن لكل نبى وصياً ، وأن علياً وصى النبى . ولما كان النبى خاتم الأنبياء ، فأن علياً خاتم الأوصياء . .! وهذه دعوة شيعية صريحة كان ابن سبأ أول من نادى بها فى الأسلام . وكثيراً ما كان يتخذ هذه الوسيلة المعروفة — فرق تسد — لنيل أغراضه وتحقيق مراميه . ولكى يفوز بأمنيته جعل يقول لأنصاره :

— ابدأوا الطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس إليكم .

وهى خطة صريحة جريئة ترمى إلى الحض على الثورة بالتفريق ما بين الحاكم والمحكوم ، عن طريق ينطوى على خطة سياسية على الرغم من ظهورها بالمظهر الدينى . ولقد صدق فان فلوتن إذ قال :

« إن هذه الطوائف التى نشأت بين العرب فى الولايات التى فتحوها ، وعلى الأخص فى البصرة والكوفة ومصر ، كانت منطوية بادىء الأمر على غرض سياسى محض رغم ظهورها بهذا المظهر الدينى (١)

« Ces factions nées parmis les Arabes dans les pays conquis poursuivent d'abord un but, purement politique, quoique sous une apparence religieuse. »

ومما ساعد على اضطراب حبل الأمور وسرعة انتشار لهيب الثورة فيها ، انضمام ذوى الرأى فيها والجاه ، إلى صوت الشعب إذ استطاع ابن سبأ أن يجد فى محمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن أبى حذيفة عضداً قوياً لإثارة الناس على عثمان ؛ كما استطاع عمرو بن العاص وعمار ابن ياسر أن يستغلا هذه الأحوال للعمل الجدى نحو قلب نظام الحكم .

---

(1) Van Vloten, La Domination Arabe le Chiitisme et les Croyances Messianiques, p 34.

ومما يؤسف له ، أن نرى كثيراً من الحوادث مثاراً لأسباب شخصية : وآية ذلك ما كان من محمد بن أبى إذطلب حذيفة إلى عثمان أن يستعمله على إحدى الولايات مع حداثة سنه وقلة حزمه وتجربته . فرفض عثمان مطلبه ، فلما أراد ابن أبى حذيفة الخروج من المدينة أذن له عثمان فى ذلك وأجرى عليه الأرزاق والعطايا ، فرحل إلى مصر وهو ممتلىء حنقاً ظل يشتد ، حتى حانت فرصة العمل ، فتنكر لعثمان وأصبح من المؤلبين عليه .

حنق محمد بن أبى بكر

أما السبب فى حنق محمد بن أبى بكر فيقال إن حقاً لزمه فأخذه عثمان منه ، ولم يرع فيه إلا جادة الحق ، فغضب محمد بن أبى بكر لذلك ، معتقداً أن لشخصيته وبنوة أبى بكر . شأناً ومنزلة ، فلما لم يعبأ عثمان بهما فى سبيل أخذه الأمر بالحق ، تنكر له محمد بن أبى بكر وانضم إلى الثوار .

وليس بعيداً أن يكون لمحمد بن أبى حذيفة أثر فعال فى إثارة محمد بن أبى بكر وحمله على الانتقاض على عثمان ، فقد كانا يحاربان معاً فى غزوة ذات الصوارى تحت أمرة عبد الله بن أبى سرح : وقد صرحا بعيب عثمان بن عفان

واستباحا دمه بحجة أنه استعمل عبدالله بن سعد : رجلا كان رسول الله أباح دمه ، ونزع أصحاب رسول الله ، واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر . . ! وقـــد أفسدا المتحاربين لما نفثاه فى نفوسهم من كراهية الوالى والخليفة فلما علم ذلك عبدالله بن سعد أرسل ينهاهما ويزجرهما (١).

عمار بن ياسر

وأما ميل عمار بن ياسر إلى الثوار فأمر يصعب تحقيقه على وجه الدقة لأنه كان من المناصرين لعثمان بن عفان . غير أنه قد يكون محنقاً لسبب شخصى أيضاً : هو أن خلافاً كان نشب بينه وبين عتبة بن أبى لهب (٢) تقاذفاً فيه ، فلما حكم عثان فى الأمر ضربهما جزاءاً وفاقا وسنرى فيما بعد كيف انضم عمار بن ياسر إلى الثائرين من المصريين .

انتقاض عمرو بن العاص

ويعلل المؤرخون انتقاض عمرو بن العاص على الخليفة بأن هذا عزله عن مصر تحت تأثير الوشايات التى بدأ عثمان حكمه الادارى وهو محوط بها من جانب مروان ابن الحكم وأضرابه . وفى الحق أنه ليعز كثيراً على قائد ماهر كعمرو بن العاص بذل النفس والنفيس فى سبيل

« ١ » و « ٢ » فلهوزن ص ٤٧

فتح مصر والاستيلاء عليها ، أن يرى نفسه معزولا عن إقليمه تحت تأثير خطة مرسومة للتخلص منه بادىء ذى بدء : بعزله ولا عن ولاية الخراج ، وحصر اختصاصه فى دائرة ضيقة كأمرة الجيش والأمامة بالصلاة ، ثم التثنى بعزله عن هذين أيضاً . . !

وفى الحق لقد خسر عثمان شخصية لم يكن فى استطاعته أن يحصل على مثلها بفقده عمرو بن العاص ، فقد أساء إلى نفسه — وإلى الدولة — بعزله رجلا ماهراً محنكا مقتدراً كعمرو بن العاص ، الذى لم يلبث أن كمن له العداوة والبغضاء . ومن ثم أخذ يثير الشعور ضده بالمدينة ، بل ربما لم يتحرج عن ذلك فى مصر نفسها .. !(١)

***

وصفوة القول أن الأمصار كانت تنوء بأحمال ثقيلة ، لم يكن بد من إزاحتها ، والعمل على التخلص منها ، ومن ثم بدأ الدور الخطير من الثورة وهو دور العمل . . !!

---

(١) الطبرى ١ : ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤

الفصل الثانى

دور العمل

١ — تطور الفتنة

اتفقت كلمة الثوار على الشخوص إلى المدينة فى وقت واحد ، وتوالت الرسائل بينهم ، واتفقوا على أن يخرجوا فى غيبة العمال فى موسم الحج ، فلما اقترب موسم الحج عام ٣٥ هـ خرج من مصر ستمائة ، ومن الكوفة نحو مائتين وخرج من البصرة نحو ستمائة . وبذلك كانت أغلبية هؤلاء من المصريين مما دعا بعض المؤرخين إلى نسبة قتل الخليفة عثمان إلى المصريين نظراً لكثرة عددهم . اتفاق الثوار

خرجت هذه الجموع فى وقت واحد، وتجمعت فى مكان واحد فى الحجاز، وأرادت أن تصل إلى المدينة، فلما اقتربوا منها خلفوا معظم الجيش بعيداً، ومن ثم تقدم نفر من كل فريق ونزل ضاحية من ضواحى المدينة: فنزل أهل الكوفة «الأعوص» ونزلى أهل البصرة «ذاخشب» (١) — إحدى ضواحى المدينة — ونزل أهل مصر «بذى المروة». ولم يكن كل هؤلاء متفقين على كلمة واحدة إزاء من يرشحونه للخلافة، بل إن كلا منهم كان له هوى فى شخص معين إذا ما عزل عثمان. ونحن نقول «إذا عزل» لأن الثوار أنفسهم لم يكن يدور بخلدهم قتل الخليفة، إنما كان جل همهم التخلص من حكمه والارتياح إلى حكم رجل آخر. وكان ذلك الرجل فى نظر أهل البصرة هو طلحة، وفى نظر أهل الكوفة هو الزبير، وأما المصريون فلم يكن هواهم فى هذا أو ذاك. وإنما كانوا يرمون إلى تنصيب على للخلافة نظراً لتشيعهم العميق من جهة؛ ولما تلقوه

خروجهم للمدينة

اختلاف الأهواء

«١» شرح نهج البلاغة ص ١٦٢ : الأعوص بفتح الواو والصاد المهملة موضع قرب المدينة جاء ذكره فى المغازى وهى على أميال من المدينة يسيرة «ياقوت ص ٢٩٣»

من تعاليم دعاة الشيعة من جهة أخرى (١) .

ولما نزل القوم ذا خشب — إحدى ضواحي المدينة — كتبوا إلى الخليفة الكتاب التالي يدعونه فيه إلى التوبة :

نصيحة الثوار لعثمان

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فالله الله ثم الله الله ، فانك على دنيا فاستتم إليها معها آخرة . ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . واعلم إنا والله لله نغضب وفي الله نرضى . وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة ، أو ضلالة مجلحة مبلحة . فهذه مقالتنا لك ، وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا والسلام (٢) » .

إزاء هذه الرسالة ، جمع عثمان بعض أصحابه وأهل بيته ، وعرض عليهم الأمر ، وطلب منهم إبداء الرأي فيما هو بصدده ، فأشار فريق أن يرسل في طلب علي بن أبي طالب ليردهم عنه ، وأشار مروان بن الحكم أن يعطيهم ما سألوه ، معللا الأمر أنهم بغوا عليه ولا عهد لهم .

استغاثته بعلي

وقد اتبع عثمان الرأي الأول ، إذ أرسل إلى عليّ وخاطبه في الأمر ، وطلب إليه أن يردهم عنه ، واعداً أن

«١» الطبري ١ : ٢٩٥٥ «٢» الطبري ١ : ٢٩٨٦

يعطيهم الحق من نفسه ومن غيره ، حتى لو كان فى ذلك سفك دمه ، فقال له على :

ـــ الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك . . ! وإنى لأرى قوماً لا يرضون إلا بالرضا ، وقد كنتَ أعطيتهم فى قدمتهم الأولى لترجعن عن جميع ما نقموا ؛ فرددتهم عنك ثم لم تفِ لهم بشىء من ذلك . فقال : نعم ! فأعطهم . فوالله لأفينّ لهم . موقف على

فخرج على إلى الناس وقال لهم :

ـــ أيها الناس ! إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه . إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره . وراجع عن جميع ما تكرهون . فقبلوا منه ووكدوا عليه .

فلما قبل الناس من على مقالته ، رجع إلى عثمان وأخبره الخبر . فقال عثمان :

ـــ إضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ؛ فأنى لا أقدر أن أرد ما كرهوا فى يوم واحد .

فقال له على :

— ماحضر بالمدينة فلا أجل فيه . وما غاب فأجله وصول أمرك . . . !

قال عثمان :

— نعم ! ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام .

ووافق على ، ووافق الناس معه ، على هذا الأجل ، بعد أن أخذ على عثمان العهد والمواثيق أمام شهود من وجوه المهاجرين والأنصار ، وبذلك كف عنه المسلمون ورجعوا حتى يفي لهم بما وعد .

ولكن الأيام الثلاثة مضت وهو على حاله ، لم يغير شيئاً مما كرهوا ، ولم يعزل عاملا ثار به الناس (١) . هذا فضلا عن أنه كان يستعد حربياً معتمداً على رقيق الخمس. وهنا خرج عمرو بن حزم الأنصاري (٢) حتى أتى المصريين وهم في ذي خشب وأخبرهم الخبر . وقد كادت ثورة القوم تهدأ بهذا إذ اتفقوا على إمهال عثمان ثلاثة أيام كما قدمنا ، لولا أن حدث حادث هو في نظرنا أول الشرر الذي تطايرت منه نيران الثورة . ذلك أنه بينما كان

---

(١) فلهوزن ص ٤٧

(٢) الطبري ١ ص ٢٩٨٩

الثائرون من المصريين قافلين فى طريقهم إلى مصر ، إذا بهم يسرعون إلى عثمان لمناقشته الحساب فى أمر ذى بال : فقد حدث أن ضبطوا غلاماً من غلمان عثمان يحمل خطاباً مرسلا برسم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، عامل عثمان على مصر ، يأمره فيه بتعذيب الوفد . وهذا نصه بعد الديباجة :

ضبط خطاب سرى

« أما بعد ! فاذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة جلدة ، واحلق رأسه ولحيته ، وأطل حبسه حتى يأتيك أمرى . وعمر بن الحمق فافعل به مثل ذلك ، وسودان بن حمران مثل ذلك ، وعروة بن النباع مثل ذلك . » (١)

فلما عرض القوم هذا الخطاب على عثمان قال : ما فعلت ، ولا علم لى بما تقولون . . . !

قالوا : بريدك على جملك ، وكتابك عليه خاتمك . . !!

قال : أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط ، وأما الخاتم فانتقش عليه . . . . !

---

(١) ذكره المدائنى وابن الكلبى والواقدى والطبرى

اقالو : فانا لا نعجل وإن كنا قد اتهمناك . فاعزل عنا عمالك الفساق ، واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا ، واردد علينا مظالمنا .

فقال عثمان مغضباً : ما أرانى إذاً فى شيء إن كنت أستعمل من هويتم ، وأعزل من كرهتم . . . الأمر أمركم . . . ؟ ! !

قالوا : والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلنّ ، فانظر نفسك أو دع ، ولكن عثمان أبى على الثوار ماعرضوا .

حصار عثمان ٤٠ يوماً

فحاصروه أربعين يوماً ، دعا أثناءها عثمان الأشتر بن مالك ، الذى أكد مطالب الثوار على النحو الذى عرضوه . غير أن عثمان مع ذلك لم يرض أن يخلع قميصاً قمصه الله إياه كما كان يقول .

ولما علم عثمان بمسألة القتل التى أثارها الثوار فى حالة عدم إجابتهم إلى ما طلبوه قال : وأما أن تقتلونى ، فوالله لئن قتلتمونى لا تتحابون من بعدى أبداً ، ولا تصلون بعدى أبداً ، ولا تقاتلون بعدى عدواً ، جميعاً أبداً ، . ! (١)

---

(١) الطبرى طبعة دى غوية . ص ٢٩٩٠

٢ ــ القتل

عند هذا قام الأشتر، ومكث أياماً مع الثوار . ثم جاء رويجل كأنه ذئب ، فأطل من باب ثم رجع . وجاء محمد بن أبى بكر وثلاثة عشر حتى انتهى إلى عثمان ، فأخذ بلحيته فهزها ثم قال غاضباً :

ــ ما أغنى عنك معاوية : ما أغنى عنك ابن عامر ! ما أغنت عنك كتبك . . !!

قال عثمان :

ــ أرسل لحيتى يا ابن أخى !، . أرسل لحيتى . . !

ووقعت الفجيعة .

***

موقف على من الفاجعة

ولا بد لنا أن نتحدث قليلاً عن موقف على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، بعد أن رأينا منه جهداً فى حمل عثمان على إرضاء الشعب الأسلامى فنقول : إنه إزاء هذا التسويف من جانب عثمان خرج على من المدينة إلى خيبر ، فأرسل عثمان فى طلبه متمثلا بقول الشاعر :

فأن كنتُ مأكولا فكن خير آكل
وإلا فأدركنى ولمـــا أمزّق

ولم ير علىّ أن يتقاعد عن نصرة الخليفة مرة أخرى فأقبل إلى المدينة يتدبر الأمر ، فألفى الناس قد شددوا الحصار على عثمان حتى منعوه الماء ، وقتلوا من تحدثه نفسه أن يحمل إلى داره شيئا منه ، وطفق يسرد على الثوار آداب الثورة — إذاصح هذا التعبير — ذاكراً لهم أن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسبق . ولـكن محاولته ذهبت عبثاً . فـلم ير إلا أن يرحل ، ورمى بعمامته فى الدار ، دليلا على أنه قام بواجبه حينئذ ، وبهذا خلا الجو للثوار خصوصاً أن طلحة والزبير كانا قد لزما داريهما كذلك .

منع الماء عن عثمان

* * *

ولما اشتد الحصار على عثمان لم يرَ بداً من الأشراف من منزله على الثوار . ولشد ما كانت دهشته حينما قرأهم السلام فلم يرد عليه أحد . . عند هذا قال :

— أنشدكم بالله ! هل تعلمون أنى اشتريت بئر رومة

من مالى ، يستعذب بها ، فجعلت رشائى بها كرشاء رجل من المسلمين . . ؟

قالوا : نعم .

قال : فما يمنعنى أن أشرب منها ؟ ثم قال : أنشدكم الله هل علمتم أنى اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته فى المسجد ؟ قالوا نعم .

قال : هل علمتم أحداً من الناس منع الصلاة فيه قبلى؟؟ ثم أخذ يسرد لهم أموراً أخرى رغبة منه فى تلطيف ثورتهم الحادة ، ولكن الجمهور كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الحقد على عثمان مما ملأ صدورهم حنقا ، فصدوا عن الاستماع إلى ما كان يذكره لهم الخليفة .

محاولته عبثا إقناع الثوار

ولما كانت القوة العسكرية التى بجانب عثمان غير كافية للضرب على أيدى الثوار فى هذه المحنة ، فقد أرسل الكتب إلى الحجاز ، يستنصر أهله ، كما أرسل إلى الأمصار كتبا بهذا المعنى . فكتب الى أهل الشام باسم معاوية الكتاب التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! أما بعد ، فان أهل المدينة

قد كفروا وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول» (١)

ولكن معاوية لم يسرع بنجدة الخليفة ، إما لأنه كان يميل إلى أن يترك الأمر دون أن يشغل به أهل الشام ، وإما لأنه كان ينظر إلى الحوادث نظر من يرقب الفرص لاقتناصها لصالحه . على أنه فيما نرى لم يكن يتطلع في هذه الآونة إلى فكرة الخلافة ، ولم يعمل إلى الجلوس على كرسيها . ولكنه ! فيما نرى ، كان يطمع في أن يشتد طلب عثمان إياه ، فيمده في اللحظة الأخيرة ، وبذلك يحمله على معرفة قدره وقدر الجميل الذي يسديه إليه . أما الثوار فقد أرسلوا بدورهم إلى أهل مصر كتابا حثوهم فيه على المجيء إليهم قائلين : فننشد الله ، من يقرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بأحسان ، إلا أقبل علينا ، وأخذ الحق لنا وأعطانا . فأقبلوا علينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم ، وفارقكم عليه الخلفاء (٢)»

موقف معاوية

---

(١) الطبري ١ : ٢٩٨٥

(٢) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ٣٢

٣ ـ الفاجعـــــة

ولقد خاف المحاصرون أن تأتى الأمداد إلى عثمان من أهل الحجاز ومن الشام وغيرهما ممن رغبوا فى مساعدته، بعد ما ناشدهم الله فى أمره ، ولذلك نراهم يسرعون بالدور الخطير فى هذه الفاجعة العنيفة .

ذلك أن محمد بن أبى بكر تسور ، ومعه رجلان ، من دار رجل من الأنصار ، حتى دخلوا على عثمان . ولم يكن معه إلا امرأته . فدخل عليه محمد بن أبى بكر ، فصرعه ، وقعد على صدره ، وأخذ بلحيته وعنفه ، مستصغراً شأن ابن عامر ومعاوية وابن أبى سرح . ولكن عثمان ذكـّر ابن أبى بكر بوالده ، فتراخت يد محمد وقام عنه . فلما خرج ، دعا عثمان بوضوء فتوضأ (١) وأخذ مصحفا فوضعه فى حجره ليتحرم به . وفى هذه الأثناء رأى المصريون أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى المنزل فجاءوا بنار فأحرقوا الباب والسقيفة ، حتى إذا احترق الباب خرت السقيفة عليه . عند هذا ثار أهل الدار ، وعثمان يصلى ، حتى منعوهم

(1) Welhausen, The Arab Kingdom & its Fall. (Translated from German) p. 49.

الدخول . ولكن الثوار تمكنوا مع ذلك من النفاذ إلى الدار ، حيث دخل على عثمان رجل من أهل الكوفة بمشقص في يده ، فوجأ بها (١) منكبه مما يلي الترقوة. فأدماه، ونضح الدم على المصحف . . ! الدم على المصحف الشريف

وجاء آخر ، فضربه برجله ، ثم تتابع ستة آخرون على الخليفة ، واحداً بعد واحد ، فلما دخل محمد بن أبي بكر كان عثمان قد أفاق من إغماء شديد . فلما أبصره صاح به محمد بن أبي بكر :

— أي نعثل . . ! (٢) غيّرت وبدّلت وفعلت . . . !

ثم دخل رجل من أهل مصر ، فأخذ بلحيته فنتف منها خصلة ، وسلّ سيفه وعلاه به ، فتلقاه عثمان بيده فقطعها ، فصاح عثمان : قطع يد عثمان

إنها والله أول يد خطت المفصل وكتبت القرآن...!!

بعد هذا ، دخل رجل قصير أزرق ، ومعه جزر من حديد ، فمشى إليه فقال :

---

(١) المشقص بكسر الميم : سهم فيه نصل عريض .
(وجأته : اذا ضربته بسكين ونحوه في أي موضع . والاسم الوجاء)

(٢) نعثل اسم رجل قبطي طويل اللحية كان بالمدينة تشبيها لهذا بذاك في طول اللحية .

— على أى ملة يا نعثل . . ؟ ؟

فقال عثمان : لست بنعثل ، ولكنى عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفا ، وما أنا من المشركين .

فقال له الرجل : كذبت . . . ! وضربه بالجزر على صدغه الأيسر ، فغسله الدم وخرّ على وجهه . وحالت

مروءة الزوجة زوجته نائلة بنت الفرافصة، بينه وبينه — وكانت جسيمة — كما ألقت بنت شيبة نفسها عليه (١) .

ودخل رجل من أهل مصر ومعه سيف مصلت وقال:

— والله لاقطعنّ أنفه . . !

فعاودت الزوجة شهامتها ، وتحملت هى الضربة التى قطعت أناملها . . !

وفى الحق ، لقد أظهرت هذه الزوجة من حسن البلاء ورباطة الجأش ما يجعلها فى مصاف الشجعان الذين يذكرهم التاريخ بمداد من الفضل والفخر . فقد وقفت تحول دون تقدم القتلة ، ودعت « رباح » غلام عثمان ، وطلبت إليه أن يعينها ، فقتل بسيفه من قطع أناملها . ثم لم يلبث أن دخل رجل (هو كنانة بن بشر

---

(١) الامامة والسياسة ص ٤٠

التجيبى) فوضع ذبابة السيف فى بطن عثمان ، فأمسكت نائلة السيف فحز أصابعها ، ومضى السيف فى بطن الخليفة فقتله . (١) وهنا خرجت الزوجة الباسلة وهى تصيح ، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا فلم يسمع صوت نائلة لما كان فى الدار من الأصوات والجلبة . ومع هذا ، فقد أشرفت على الناس ، وأعلنت قتل الخليفة وسط تأثر عميق وحزن مفجع . ! !

بقر بطن عثمان

وهنا دخل الحسن والحسين ومن كان معهما بالباب فوجدوا عثمان مقتولا ممثلا به ، فأكبوا عليه يبكون ثم خرجوا ، فدخل الناس فوجدوه على هذه الصورة الدامية المفجعة ، تجرى الدماء من جثمانه الهامد الطاهر . . . !

الحسن والحسين

وسرعان ما طير الخبر إلى على وطلحة والزبير (٢) وسعد بن أبى وقاص ومن كان بالمدينة ، وقد أسرع هؤلاء إلى دار عثمان وهم مذهولون مشدوهون . فلما دخلوا عليه بكوه حتى قيل إن علياً غشى عليه ، فلما أفاق

---

(١) الطبرى (طبعة دى غوية) ١ : ٣٠٢٠

(٢) ويقال ان الزبير لم يلحق مقتله فخرج قبله (الطبرى) ١ ٣٠١١

علي بن أبي طالب
يبكي ويلطم ولديه

عنف ابنيه — وكان قد أرسلهما لحمايته — تعنيفا شديداً لقتله وهما على الباب. ولطمهما بيده، كما شتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير (١) مما يدل على أن علياً لم يكن يتردد فى مساعدة الخليفة (٢)، وإطفاء نار الثورة، على عكس ما ذهب إليـــه كثير من المستشرقين أمثال الأستاذ نكلسون (٣) وفلهوزن الذى يقول:

رأى خاطىء
للمستشرقين

« إن علياوطلحةوالزبير لم يؤدوا ما عليهم من واجب نحو إطفاء هـذه النيران التى اندلع لهيبها حول عثمان. وعذرهم فى هذا أنهم لا يستطيعون مد الخليفة بمساعدة لأنهم اقتصروا على محاولة الاحتفاظ بالمظاهر.. ! ثم يقول: والحقيقة أنهم لم يبذلوا أى جهد لا يقاف الحوادث ،أملا فى أن تتمخض هـذه الحوادث عن تحقيق مآرب شخصية لمصالحهم » (٤)

---

(١) الفخرى : الآداب السلطانية ص ٩٤

(2) &(3)Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 191.

(4) Welhäusen, The Arab Kingdom & its Fall. (Translated from German .) p. 49.

وهكذا لقى الخليفة حتفه على الصورة التى قدمنا. وكان قتله فى يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة عام ٣٥ ﻫ ، الموافق ١٧ يونيه سنة ٦٥٦ م فيكون عمره حين قتل بين الثانية والثمانين والتسعين .

آخر خطبة لعثمان رضى الله عنه

وكانت آخر خطبة لعثمان هى :

« أما بعد ، فان الله عز وجل ، إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى . فلا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية . فآثروا ما يبقى على ما يفنى . فان الدنيا منقطعة ؛ وإن المصير إلى الله . اتقوا الله عزوجل ، فان تقواه جنة (أى وقاية) من بأسه ووسيلة عنده . واحذروا من الله الغير . والزموا جماعتكم : لا تصيروا أحزاباً . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . »(١)

---

(١) الطبرى (طبعة دى غويه) ١ : ٨ ٣٠٠

رثاء عثمان بن عفان

ولئن كان هذا الخليفة الطيب القلب قد ذهب ضحية غدر الثوار فان الأمة الأسلامية لم تعدم من رثاه رثاء مؤثراً . ومن هؤلاء حسان بن ثابت وقد رثاه فقال :

أتركتم غزو الدروب وراءكم
وغزوتمونا عنـــد قبر محمد
فلبئس هـدى المسلمين هديتمُ
ولبئس أمر الفـاجر المتعمد

وله أيضا :

إن تُمس دار بن أروى منه خاوية
باب صريع وباب محرق خرب
فقد يصادف باغى الخـــير حاجته
فيها ويهدى إليها الذكر والحسب
يأيها الناس أبدوا ذات أنفسكم
لا يستوى الصدق عند الله والكذب

وقال أحد شعراء ذلك العصر :

لعمر أبيـك فلا تجزعن
لقـــد ذهب الخير إلا قليلا

لقـــد سفه النـاس فى دينهم
وخلى ابن عفان شرا طويلا
أعاذل كل امرىء هالك
فسيرى إلى الله سـيراً جميلا

* * *

ومن أروع ما ذكر فى هذا الصدد خطبة ابنته عائشة بعد قتـله حيث قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه : « يا ثارات عثمان ! إنا لله وإنا إليه راجعون . أفنيت نفسه، وطُل دمه فى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنع من دفنه . اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عز وجل حاكما ، ومن المسلمين ناصرا ، ومن المهاجرين شاهدا، حتى يفيء إلى الحق من سدر عنه . أو تطيح هامات ، وتخاض دماء ، ولـكن استوحش مما أنستم به ، واستوخم ما استمرأتموه ؛ يا من استحل حرم الله ورسوله واستبـــاح حماه ! لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه ولقد نقمتم عليه أقل مما أتيتم إليه . فراجع فلم تراجعوه . واستقال ولم تقيلوه .

ابنته عائشة ترثيه

رحمة الله عليك ياأبتاه ؟ احتسبت نفسك ، وصبرت

لأمر ربك حتى لحقت به . وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وكوامن الأحقاد . »

ثم أخذت تستعرض مقارنة بين شدة عمر بن الخطاب وطيبة أبيها مندده بالثوار فى خطبة طويلة مليئة بالحزن والتعنيف الشديد (١) .

فليتصور القارىء إذاً مبلغ ما استجمعته السيدة عائشة من شجاعة نادرة المثال حتى لترى الجثة الطاهرة أمامها ينضح منها الدم ، ومع ذلك فهى تقف متمالكة أعصابها فى هذا الظرف الدقيق ، لترثيه بهذه العبارة البليغة المؤثرة .!

والحق إن موقف هذه السيدة ليدعو إلى الأكبار والأعجاب ، فليس كثير من النساء من يحتملن هذه الصدمة المفاجئة دون أن يأخذهن الاضطراب والجزع ، أما عائشة فقد وقفت ترثى فى عثمان الخليفة المظلوم ، وترثى فيه الوالد والضحية . . !

---

(١) أشهر مشاهير الاسلام ج ٤ ص ٨٢٣ و ٨٢٤ و ٨٢٥

خطبة نائلة بنت الفرافصة

كذلك قامت زوجته فرثته وسط جموع المسلمين .

وكأنى بهذه السيدة الجليلة تقف موقف البطولة الخالدة حين تقول لمستمعيها : معاشر المؤمنـــة وأهل الملة ! لا تستكثروا مقامى ، ولا تستكثروا كلامى ! فانى حرّى عبرى (١) . رزئت جليلا ، وتذوقت ثكلا من عثمان بن عفان ، ثالث الأركان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، له الفضل عند تراجع الناس فى الشورى يوم الارشاد ، فكان الطيب المرتضى المختار ، حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك فى فضله متأثم ، . . فكان واحداً غير مدافع ، وخيرتهم غير منازع ، لا ينكر له حسن الغناء ، ولا عنه سماح النعماء . إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا إلى رءوس أئمة الكفر حيث ركضوا . . . ثم تقول :

رثاء الزوجة الثكلى

فلله هو ! لحين فقدتم سطوته وأمنتم بطشته ، رأيتم أن الطرق قد انشعبت لكم ، والسبل قد اتصلت بكم .

(١) حرى أى عطشى والعبرى هى التى تكثر من ترديد البكاء فى صدرها

ظننتم أن الله يصلح على المفسدين ، فعدوتم عدوة الأعداء وشددتم شدة السفهاء على التقى ، الخفيف بكتاب الله عزوجل لسانا ، الثقيل عند الله ميزاناً ، فسفكتم دمه وانتهكتم حرمه ، واستحللتم منه الحرم الأربع : حرمة الأسلام ، وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام . . . !

فليعلمنّ الذين سعوا فى أمره ، ودبوا فى قتله ، ومنعونا من دفنه اللهم إن بئس للظالمين بدلا ، وإنهم شر مكانا وأضعف جندا . . . ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان . . . !!

هيهات والله ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود.!

٤ ـــ خاتمة القول فى عثمان بن عفان

وإذا كان لنا أن ندلى برأى فى قتل هذا الخليفة ، فأننا لا نتردد فى أن نقر بافتراء فريق من المسلمين ، وعدوانهم عليه ، حتى فقدوا شعورهم فأحلوا ، وسط شهوتهم العمياء ما حرمه الله من سفك دماء المسلمين ، بله سفك دم الخليفة . . ! ثم قتله . . ثم التمثيل به . . ! ثم قسوتهم فى

دفنه . . !! ذلك أنهم لم يكتفوا باقتراف تلك الجريمة المنكرة ، بل إنهم زادوا الأمر سوءاً فلم يسمحوا له أن يدفن فى جنازة تليق به وبمقامه الجليل ، ولذا فان جثته حملت ليلا . . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ! بل إنهم لم يسمحوا أن تدفن فى مقبرة المسلمين . . !! وأبوا عليه إلا أن يدفن فى مقبرة مجاورة لمقابر اليهود وسط مظاهر الأيذاء والتنكيل فرموا الجثة بالشتائم ورجموها بالأحجار زيادة في التنكيل والنعش محمول على الأعناق . . . (١)

التنكيل به حتى بعد الوفاة

على أن المؤرخ لا يستطيع أن يخلى عثمان نفسه من المسئولية فى هذه الفتنة . فسياسته وضعفه ولينه من الأمور التى أحفظت عليه الشعب ، وجرت عليه هذه الثورة . هذا فضلا عن أنه كان يجدر به أن يفى بما وعد المسلمين عند ما أتاه علىّ ورد عنه الثوار ، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إنه كان من الواجب عليه أن يتخلى عن منصبه طالما رأى بعينه أن القوم جادون فى ثورتهم ، وأن الجيش ضده ، وأنه كالميت بين يدى الغاسل كما يقولون . . كذلك كان على عثمان أيضاً أن يتخذ موقفاً أكثر حزما من

---

(١) فلهوزن ص ٥٠

الموقف الذى شهدناه عند ما أظهر له المصريون ذلك الكتاب الذى أمهر بخاتمه ، والذى لا يبعد مطلقاً أن يكون مروان بن الحكم نفسه قد افتعله إلى عبد الله بن أبى سرح .

فلو أنه قام بتشكيل لجنة تحقق مسألة الكتاب وكاتبه لقطع على الثوار المصريين حجتهم فى الرجوع والانتقاض عليه . بل لو أنه أظهر من الشك فى مروان ما يطمئن إليه هؤلاء الثوار لسكنت ثائرتهم من هذه الناحية . وكان على عثمان أيضاً أن يناقش الحساب ذلك الغلام الذى قيل إن المصريين ضبطوا معه الخطاب المشار إليه ، فى الاهتمام الجدى بهذه المسألة ، ما يمكن عثمان من التخلص من إتهام المصريين إياه بكتابة هذا الكتاب ، أو اتهامه بالتستر على مروان بن الحكم الذى يظن ، على أبسط الفروض ، أنه هو الذى مهر الكتاب بالخاتم .

ويمكننا القول أيضا بأن انقياد عثمان إلى مروان بن الحكم ، وتسلط هذا على فكر الخليفة تسلطاً كان من شأنه أن أثار الموجدة بين نفوس الشعب ، كان هو أيضاً من الأسباب التى تؤخذ على عثمان ، والتى تبعد أن تكون من مظاهر الشورى ، وإنما هى ضرب من ضروب الضعف والأوتوقراطية .

ولا شك أن أكبر الأثر فى إثارة المصريين إنما يرجع إلى تعاليم الدعاة الأقوياء أمثال ابن سبأ، وأبى ذر وعمار بن ياسر وغيرهم من المؤلبين على عثمان، وإلى سخط القواد ذوى السطوة والشكيمة، أمثال عمرو بن العاص ومحمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة على نحو ما فصلناه.

* * *

ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه الثورة هى المنفذ الطبيعى أمام شعب ساخط رأى دستور الدولة فى يد أناس يتعصبون لذوى قرباهم من سائر عباد الله المسلمين، وما هذه الثورة إلا النتيجة الكيمائية لجملة مواد كانت فوق بوتقة ما لبثت أن تفاعلت كلها بعضها مع بعض وتمخضت عن قتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه.

آثار قتل الخليفة

على أن فتك المسلمين بخليفتهم على هذه الصورة قد ذهب بما كان للخلافة من روعة وجلال، وهتك ما كان لها من حرمة واحترام، كما أزال عن المدينة قيمتها السياسية، إذ أحس أهل الأمصار أنهم مصدر القوة المادية،

وشعروا أن بيدهم الأمر وهم على كل شيء قادرون . . ؟
وبقيت المدينة مرتد الأثرياء واللاهين ، ومحط المغنيات والمغنين ، ومن على شاكلة هؤلاء وأولئك من طلاب اللهو والترف .

أما الحجاز نفسه فقد بدأ هو أيضاً يفقد قيمته المادية ، إذ رحلت عنه أكثر أهل القبائل إلى الأمصار لما استشعروه فيها من الجاه والقوة .

ولسنا نشك أخيراً أنه كان من أثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان أن فتح باب الحرب الأهلية على مصراعيه دون أن يغلق ، كما أصبحت الكلمة النافذة فى يد هؤلاء الثوار مما كان له أثر بعيد فى التاريخ الأسلامى فيما بعد (١). إذ أصبح نمو الدستور الأسلامى يسير فى طريق جديد غير الطريق الذى نما فيه أيام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . ذلك أن مسألة الرئاسة التيوقراطية ، أو الخلافة بمعنى آخر ، أصبحت تحل بالقوة . كما أصبحت الجماعة الأسلامية لا تخضع ولا تسكن إلا بالسيف . ولم يلبث

(1) Welhausen, The Arab Kingdom & its Fall.p. 25.

الجمهور أن رأى في يده حقاً يجدر به استعماله هو حق انتخاب الخليفة . ومن ثم لم يجد العامة في الدولة شخصية تليق لهذا المنصب الخطير إلا علي بن أبي طالب فانتخبوه .

على أنه سرعان ما عصفت ريح الفتنة ثانية ضد علي ابن أبي طالب نفسه ، فاندلعت بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها بنيران الحرب الأهلية وقوامها عائشة أم المؤمنين (١) ومعاوية وطلحة والزبير الذين تظاهروا بالمطالبة بثأر عثمان ، مع أن منهم من كان مؤلباً عليه . فيالتصاريف القدر . . !

انتهى ولله الحمد

كلمة صغيرة

تحدثت في ثنايا هذا البحث الذي انتهى منه القارىء الكريم عن شخصيات بارزة من الصحابة الكرام وكبار رجال الدولة الأسلامية . ولم أكن أعقب على أسمائهم في كثير من الأحيان بعبارة « رضى الله عنه » أو « كرم الله وجهه » ولم يكن ذلك ناتجاً عن قلة تقديري لشخصياتهم وإنما كان يدعوني إلى ذلك أني كنت أعتبر كلا منهم بطلا من أبطال الأسلام والتاريخ مثل هؤلاء الأبطال ليسوا في حاجة إلى عبارات التعظيم لأنهم أنفسهم عظماء من غير شك . ومع كل هذا فهأنذا أسجل لهم — رضى الله عنهم أجمعين — كل اجلالي ومزيد احترامي دفعاً لما قد يقال من غير وجه حق :

المؤلف

(١) أخطأ المستشرق فلهوزن فذكر أن عائشة كانت أم النبي صلى الله عليه وسلم والحقيقة أنها زوجته كما هو معلوم (Welhausen, p. 25).

المصادر العربية

١ ـ ابن الأثير (٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م)
على بن الأثير بن أبى الكرم .
الكامل فى التاريخ ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ هـ)

٢ ـ ابن اسحق (١٥١ هـ)
فتوح مصر وأعمالها (مصر ١٢٧٥ هـ)

٣ ـ البلاذرى (٢٧٩ هـ و ٨٩٢ م)
فتوح البلدان (١٣١٩ هـ)

٤ ـ ابن حجر العسقلانى (٨٥٣ هـ ١٤٤٩ م)
الاصابة فى تمييز الصحابة مصر ١٣٢٣ هـ

٥ ـ ابن أبى الحديد
شرح نهج البلاغة

٦ ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن
١ ـ تاريخ عمرو بن العاص الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٢٥)
٢ ـ الفاطميون فى مصر (القاهرة ١٩٣٢ م)
٣ ـ السيادة العربية (القاهرة ١٩٣٤)

٧ ـ ابن خلدون (٨٠٨ هـ و ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤ هـ)

٨ ـ ابن خلكان (٦٨١ هـ و ١٢٨١ م)
شمس الدين أبو العباس احمد بن ابراهيم ابن أبى بكر الشافعى
وفيات الأعيان جزءان (القاهرة ١٣١٠ هـ)

٩ ـ الدينورى (٢٨٢ هـ و ٨٩٥)
الأخبار الطوال

١٠ ـ رفيق بك العظم
أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (مصر ١٣٢١ هـ)

١١ ـ المسعودى (٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م)
أبو المحاسن على بن الحسين بن على .
مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان (القاهرة ١٣٠٣ هـ)

١٢ ـ ابن طباطا (توفى بعد ٧٠١ هـ)
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية (مصر ١٢١٧ هـ)

(تابع) المصادر العربية

١١ـ الطبرى « ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م »

أبو جعفر محمد بن جرير . تاريخ الأمم والملوك ٧ أجزاء ليدن « ١٨٨١ م » طبعة دى غويه

١٤ ـ ابن عبد ربه « ٣٤٩ هـ و ٩٤٠ م »

العقد الفريد ثلاثة أجزاء

١٥ ـ ابن قتيبة « ٢٧٠ هـ و ٨٨٩ م »

الامامة والسياسة

١٦ ـ المقريزى « ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م »

تقى الدين أحمد ابن على :

١ ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار جزآن « بولاق ١٢٧٠ هـ »

٢ ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا « القدس سنة ١٩٠٨ م »

١٧ ـ وستنفلد

تاريخ مكة طبعة ليزج ١٨٦١ م

١٨ ـ ياقوت الحموى ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م

شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى معجم البلدان ١٢ جزء « القاهرة ١٣٢٣ م »

١٩ ـ اليعقوبى « ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م »

تاريخ اليعقوبى « ليدن ٨٨٣ م »

المصادر الأفرنكية

1 - AMIR ALI,SAYED
A Short History of the Saracens
London 1891.

2 - LE BON, Gustave.
La Civilisation des Arabes.
Paris 1884.

3 - BROWNE, E.G.
A Literary History of Persia. Vol. I, London 1909.

4 - BUTLER, Alfred J.
(a) The Arab Conquest of Egypt.
Oxford 1902.
(b) Babylon of Egypt.
Oxford 1904.

5 - HELL,Joseph.
Kultur der Araber, Translated by Khuda Bukhsh. England 1925.

6 - IRVING, Washington.
A History of the Lives of the Successors of Mohamed.
London 1912

7 - VON KREMER,
Culturgeschichte des Orients,
(Translated by Khouda Bukhsh)
Calcutta 1920.

8 - LANE-POOLE,Stanley
A History of Egypt in the Middle Ages.
Lordon 1901

9 - NICHOLSON,Reynold
A Literary History of the Arabs.
London 1923.

10- MUIR, Sir William.
The Caliphate:Its Rise, Dicline & Fall.
Oxford 1902.

11- SEDILLOT, L, B.
Histoire Générale des Arabes,
Paris 1877.

12 - VAN VLOTEN,
La Domination Arabe le Chi'itisme et les Croyances Messianiques sous le Kalifat des Omayades.
Amsterdam 1894.

13 - WELHAUSEN,
The Arab Kingdom & its Fall.
(Translated from German by Margaret Grahame Weir M. A.
Calcutta 1927.)

الرأي العـــام

في الطبعة الأولى

تحدثت عن كتاب مقتل عثمان بن عفان صحف الاهرام والجهاد والمقطم والبلاغ وروز اليوسف والمقتطف وهدى الاسلام والمصور ، والرياضة للجوهرى ، وغيرها من صحف مصر والشرق العربى .

كما تلقى مؤلف الكتاب خطابات عديدة من شخصيات كبيرة تمتدح جهوده في إخراج هذا الكتاب :

ونحن نورد هنا بعض مقتبسات منها :

— ١ —

« وقد سجل المؤلف لنفسه رأيا شأن كبار المؤرخين في المواقف الغامضة كما يدل على دقة التمحيص وقوة الملاحظة ومتانة الاستنتاج »

(الاهرام ١٠ ابريل سنة ٩٣٥)

— ٢ —

واذاً ، فليقرأ هـذا الكتاب قراء العربية فى مصر والشام والعراق وبلاد العرب وفى سائر العالم العربى ، فسيجدون فيه قصصا تاريخياً رائعا ، مع نزاهة قصد . وليطمئن هؤلاء جميعا إلى أن المؤلف قد وفق فى هذا الى حد بعيد . المقتطف

— ٣ —

... وصلنى بحثك القيم عن مقتل الخليفة عثمان . وقد قرأته فوجدته يدل على سعة اطلاع ودقة بحث واستعداد حسن للبحث التاريخى . فأهنئك وأرجو لك فى حياتك العلمية كل نجاح وكل توفيق .

عبد الحميد العبادى
أستاذ التاريخ بكلية الآداب

— ٤ —

وبعد . . فقد وصلنى ببريد اليوم كتابك القيم فراقنى مجهودك الفتى وأعجبت بجهدك الفنى . وتحققت فيك ما كنت أؤمله منك . فقد عهدتك منذ عرفتك شعلة ذكاء . وجاءت رسالتك هذه دليل الأمل فيك والرجاء وما حيلتى بعد شكرى وإعجابى إلا أن أدعو لك فى طريق الخير بالمزيد ، وأن أسأل الله أن يبلغك ما تصبو اليه نفسك وتريد .

أسعد لطفى حسن

— ٥ —

حاول صاحب الكتاب أن يوضح غامض هذه الحوادث فى أثناء بحثه ، فبسطها للقراء بسطاً جلياً ساعدهم على تفهمها ومعرفة نتائجها ومسبباتها ، ثم شفعها جميعا ببعض آرائه في هذه الحوادث . وقد دلت على توفيق فى البحث وإصابة فى الاستنتاج الصحيح وخاصة في تمحيص آراء المستشرقين وتاريخهم عن العرب فى ذلك الوقت.

وفي النهاية ، سرد للقراء حادث قتل هـذا الخليفة بتفصيل دقيق ، أجاد فى تصوير أجزائه إجادة يستحق عليهـا الثناء . وبالجملة قد سار فى تدوين حوادث هذا الوقت العصيب كأنه يروى لك قصة يميل اليها قلبك ، وتستسيغها نفسك لجودة وضعها وترتيبها ، وإن شعرت بالأسف والتأثر لهذه النهاية الفظيعة التى انتهت اليها حياة عثمان بن عفان .

(البلاغ ١٥ ابريل سنة ٩٣٥)

— ٦ —

أهدى الينا الأديب المعروف الأستاذ محمود الغزاوى خريج كلية الآداب بالجامعة المصرية مؤلفه النفيس عن مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو بحث فى الفتنة التى حدثت أيام سيدنا عثمان بن عفان وانتهت بقتله . وقـد تصفحناه فوجدناه سفراً نفيساً يدل على دقة بحث الأستـاذ الغزاوى وتضلعه في التاريخ الأسلامى وعلو كعبه في التمحيص والاستقصاء ونحن نشكر للأستاذ بحثه القيم ونتمنى عليه — كما تمنى عليه أستاذه الدكتور حسن ابراهيم — أن يواصل بحوثه على هذا النمط الجميل ، ولا غرو فهذا من أول واجبات الجامعة المصرية التى تقع على كاهل شبابنا الجامعى . .

(روز اليوسف اليومية)

فهرس الكتاب

صفحة

القاهرة
دار مجلى للطبع والنشر

تم طبع كتاب « مقتل عثمان بن عفان »
بمطبعة بجلى « لصاحبها احمد الصاوى محمد »
بالقاهرة ٧ شارع فؤاد الاول تلفون ٥٥٤٥٥
فى يوم الثلاثاء ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٣٦



دار النشر الحديث
مطابع احمد الصاوى محمد
٧ شارع فؤاد الأول « ٥٥٤٥٥ »
القاهرة